



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة غلزان
Relizane University

كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية

تخصص : لسانيات عامة

الأبعاد الدلالية للانزياح في الخطاب القرآني -سورة المرسلات أنموذجا-

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

إعداد الطالبة :

تحت إشراف الدكتور :

بن عيسى فتيحة

بورزامة عواد

لجنة المناقشة :

رئيسا
مشرفا و

عضوا

1- د. بوداود ابراهيمي

2- د. بورزامة عواد

مقررا

3- د. عدة زهرة

مناقشا



شُكْرُ وَعِرْفَانُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يسّر لنا اليسرى وجنبنا العسرى، فذلّل الصعاب ومهد العقاب، فوفّقنا إلى إنجاز هذه المذكرة وجعل لها القبول، فتقبّلها الخيرة من الناس بقبول حسن، ونطمع أن يزيدنا -سبحانه- توفيقاً وتأيداً.

أما بعد:

نتقدم بأسمى عبارات التقدير والعرفان للدكتور المشرف "بورزامة عواد" الذي أشرف على مذكرتنا وكان حقاً نعم المشرف، الذي بنصائحه ودعمه وإرشاداته قادنا إلى إنجاز هذا البحث، فلك منّا ألف شكر وامتنان لما قدمته.

والى كل أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها.

إلى كل من علّمني حرفاً من الابتدائي إلى الجامعة، إلى كل من ساعدنا ولو بكلمة طيبة، من قريب أو بعيد.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل.

إهداء

حمد لله والشكر للرحمن على سائر النعم الوهاب،
ثم الصلاة على طه الحبيب وتحية عطرة لكل الأحباب.
بمناسبة حلاوة الختام بعد سنوات من الأتعاب،
في سبيل الكدر الغالي أغلى من حرير الثياب.
إنه العلم يا من يسمعي قلادته ذهب في الرقاب،
لكن لا ينال بالراحة ولا بكثرة النوم يا أصحاب.
فعليكم بالعلم والأخلاق والتقي وحسن الصحاب،
أهديها أولاً لمن خصهم المولى بالذكر في الكتاب، أمي وأبي، فلذات كبدي ونور حياتي
سلسبيل و ندى و اسيل و الى زوجي هواري ،
حبهم في قلبي وكياني جزاهم الله أحسن الثواب.
أهديها إلى رفيقات الدرب نصيرة و فاطمة و مروى هما كلّ الأحباب.
إلى كل أستاذ مخلص أفنى عمره من أجل الطلاب.
إلى الذي مدّ لنا يد العون ولم يبخل علينا بتوجيهاته القيّمة، إلى الذي أثرى عقولنا بما فيه
نفع لنا الدكتور المشرف بورزامة عواد.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين أما

بعد:

يعدّ الخطاب القرآني نصًّا لسانيا فريدًا في تاريخ الفكر الإنساني، لا من حيث مضامينه الدينية والتشريعية وحسب، بل من حيث بنيته اللغوية التي تجمع بين الدقة الأسلوبية والاتساع الدلالي في آنٍ واحد. وقد أولى الباحثون عبر التاريخ اهتماما بالغًا بالكشف عن الأبعاد اللسانية لهذا الخطاب، سواء من منظور الإعجاز البياني عند القدامى، أو من منظور اللسانيات الحديثة وعلم الدلالة المعاصر. وتتجلى في هذا الخطاب ظاهرة لسانية بارزة تستأثر باهتمام الباحث، وهي ظاهرة الانزياح بما تتطوي عليه من خروج مقصود عن المؤلف اللغوي نحو افاق دلالية أرحب وأعمق، تسهم في تشكيل المعنى وتوجيهه وتكثيفه.

وسورة المرسلات، التي اختيرت ميدانًا للدراسة، تشكّل نموذجًا قرآنيًا متميزًا تتضافر فيه البنى الصوتية والتركيبية في خدمة الدلالة، وتتكشف فيه ظاهرة الانزياح بصورة جلية ومتعددة المستويات. فمن الانزياح الصوتي المتمثل في التكرار والجناس والفواصل الإيقاعية، إلى الانزياح التركيبي الذي يتجلى في التقديم والتأخير والحذف والالتفات تتشكل منظومة دلالية متكاملة تحكم بنيتها وتعمق أثرها في المتلقي.

وتنبثق إشكالية هذا البحث من سؤال جوهري يفرض نفسه على كل دارس لأسلوبية

الخطاب القرآني:

كيف يولّد الانزياح اللّغوي بمستوياته الصّوتي والتركيبى أبعاداً دلالية عميقة في سورة المرسلات، وكيف تحول هذه الأبعاد إلى فضاء تعبيرى متعالى على المعنى الظاهر؟ ويتفرع عن هذا السؤال المحوري جملة من التساؤلات الفرعية: ما الحدود الفاصلة بين الانزياح الذي يخلّ بالتواصل والانزياح الذي يغنيه؟ وما العلاقة بين الانزياح الأسلوبى والإعجاز البيانى القرآنى؟ وهل يمكن تطبيق المناهج اللّسانية الحديثة على نص مقدّس دون المساس بخصوصيته؟.

وتنهض أهمية هذا البحث على مستويين متكاملين؛ مستوى نظري يتعلق بالإسهام في تطوير منهجية تحليل الخطاب القرآنى وفق أدوات لسانية دقيقة، ومستوى تطبيقي يتجلّى في تشرّيح البنية الأسلوبية لسورة المرسلات وكشف أبعادها الدلالية المتعدّدة. فضلا عن ذلك، يتقاطع هذا البحث مع الجهود الراهنة في إعادة قراءة التراث اللّساني العربي في ضوء النّظريات الحديثة ممّا يجعله إسهاما في مشروع فكري أشمل .

وقد غلب على المذكرة منهجاً وصفيّاً تحليليّاً يستند إلى معطيات اللّسانيات البنيوية وعلم الدّالة الحديث، مع توظيف الإطار الأسلوبى في تحليل النّصوص. ويعتمد المنهج المقارن في استجلاء الفارق الدّلالى بين البنى المنزاحة والبنى المعيارية، وذلك في حدود ما تقتضيه طبيعة النصّ القرآنى وخصائصه التّعبيرية. كما يستثمر البحث مباحث البلاغة العربيّة الكلاسيكية بوصفها قراءة أولى للانزياح في تراثنا النقدي، لا بوصفها بديلا عن التّحليل اللّساني الحديث.

أما الخطة التي اتخذها البحث سبيلا إلى تحقيق أهدافه، فنتوزع على مدخل مفاهيمي وفصلين رئيسيين وخاتمة: يعنى المدخل بضبط المصطلحات الأساسية للعنوان وتحديث حدودها المفهومية في البعدين اللغوي والاصطلاحي، مستعرضا تعريفات الفلاسفة والقدامى والمحدثين. في حين يتناول الفصل الأول الأبعاد الدلالية للانزياح الصوتي القرآني في سورة المرسلات، من خلال تعريفات تتصل بالظواهر الصوتية الانزياحية وأثرها الدلالي. أما الفصل الثاني فيستكشف الأبعاد الدلالية للانزياح التركيبي في السورة ذاتها عبر مظاهر التقديم والتأخير و الحذف والالتفات وما يصحبها من دلالية كامنة وتختتم الدراسة بخاتمة تجمع خيوطها وتستخلص نتائجها الكبرى .

مدخل : مقارنة مفاهيمية لمصطلحات البحث

أولاً : الدلالة لغة و اصطلاحاً

_الدلالة عند الفلاسفة

_الدلالة عند القدامى

_الدلالة عند المحدثين

ثانياً : الانزياح لغة واصطلاحاً

_الانزياح عند الفلاسفة

_الانزياح عند القدامى

- الانزياح عند المحدثين

ثالثاً : الخطاب لغة واصطلاحاً

- الخطاب عند الفلاسفة

- الخطاب عند القدامى

- الخطاب عند المحدثين

رابعاً : القرآن لغة واصطلاحاً

- القرآن عند الفلاسفة المسلمين

- القرآن عند القدامى

- القرآن عند المحدثين

توطئة:

لا تبني الدراسة العلمية الرصينة إلا على أرضية مفاهيمية متينة، إذ يعدّ ضبط المصطلحات شرطاً معرفياً أولياً لا غنى عنه قبل الشروع في التحليل. وعليه، يتوقف هذا المدخل عند المفاهيم المحورية الأربعة التي يتشكّل منها عنوان البحث: الدلالة، والانزياح، والخطاب، والقرآن الكريم، وذلك بالنظر إلى كل مصطلح من حيث معناه اللغوي أولاً، ثمّ مفهومه الاصطلاحي ثانياً، ثم رصد تعريفاته عند الفلاسفة والقدامى والمحدثين على التوالي.

أولاً/ مفهوم الدلالة

1. لغة :

جاء في "لسان العرب" لابن منظور أن مادة " د . ل . ل " تدور حول معنى الإرشاد والإبانة يقال: دلّه على الطريق أي أرشده إليه وأبانه له، والدليل هو ما يستدلّ به على المقصود. وفي المعجم الوسيط:

دلّ "الشيء على كذا: أبانه وكشفه وأرشد إليه".¹ وتتمحور المادة اللغوية كلّها حول ثلاثة معانٍ متقاربة هي: الإرشاد، والإبانة، والكشف، وجميعها تنطوي على العلاقة بين الطرفين: شيء ظاهر يرشد إلى شيء آخر خفيّ أو غائب، وما يلفت الانتباه في هذا المعنى اللغوي أنّه يحمل في طياته بعداً معرفياً عميقاً، إذ أنّ الدلالة في جوهرها اللغوي هي وساطة بين الحاضر والغائب، وهو ما سيبيّن عليه مفهومها الاصطلاحي لاحقاً.

2. اصطلاحاً

في الاصطلاح العلمي العام، عرّفت الدلالة بأنها "كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر"، وهو تعريف المنطقة الذي ينصبّ على علاقة الاستلزام بين الدالّ و المدلول. وما يستخلص من هذا التعريف أنّه يرسّخ مبدأ الوساطة الذي أشارت إليه المعاجم اللغوية، غير انه يضيف إليه بعد الضرورة المنطقية بين الطرفين. أما في علم اللغة الحديث

¹ ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. دار صادر، بيروت، ط3، 1414، مادة "دل" ج11، ص248.

فقد ضاق هذا التعريف العام وتفرّعت منه تعريفات تبعاً للمنهج والمدرسة؛ فعلم الدلالة (Semantics) يُعنى بدراسة المعنى اللّغوي في مستوياته المختلفة: المعجمية والتّركيبية والتداولية. وتقاطع هذه المستويات هو بالضبط ما يجعل دراسة الدلالة في الخطاب القرآني أمراً بالغ الثّراء والتّعقيد في آن واحد.¹

3. الدلالة عند الفلاسفة:

أرسى أرسطو في كتاب "العبرة" الأساس الأوّل لفلسفة الدّلالة حين ربط بين الصوت المنطوق والانطباع الذهني والشيء الخارجي في علاقة ثلاثية المحاور، مرسياً ما يمكن تسميته المثلث الدّلالي الذي سيرثه الفكر اللساني الحديث في صيغة مطوّرة. وفي الفلسفة العربية الإسلامية، ذهب ابن سينا إلى تمييز ثلاثة ضروب للدّلالة، إذ يقول: "دلالة اللفظ على تمام ما وُضع له مطابقة، وعلى جزئه تضمّن، وعلى ما يلزمه التزام"² وهذا التّقسيم الثلاثي الدّقيق يكشف عن وعي فلسفي راق بمستويات العلاقة بين اللفظ والمعنى، ويعدّ من أرقى ما أنتجه الفكر الفلسفي العربي في هذا الحقل، إذ ظلّ مرجعاً لا غنى عنه في المنطق والبلاغة حتى العصر الحديث.

4. الدلالة عند القدامى:

اهتمّ علماء العربية القدامى بمسألة الدّلالة اهتماماً بالغاً، وإن لم تفرد لها دراسات مستقلة في الغالب، بل وردت مبنوثة في كتب النحو والبلاغة وأصول الفقه. ومن أبرز ما قدّمه

¹ أنيس، إبراهيم. دلالة الألفاظ. مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1984، ص11-13.

² ابن سينا، الحسين بن عبد الله. الشفاء، المنطق: العبارة، تحقيق محمود الخضيرى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970، ص46-48.

التراث في هذا الشأن ما أورده عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" من أن "الفضيلة ليست في اللفظ نفسه، وإنما هي في موضعه من التركيب والنظم".¹ وهذا الطرح يكشف عن بصيرة نقدية نافذة، إذ استبق الجرجاني بما قرره ما سيصطلح عليه في اللسانيات الحديثة بالدلالة السياقية والبنوية، مما يجعله علامة فارقة في تاريخ الفكر الدلالي العربي لا يمكن إغفالها.

5. الدلالة عند المحدثين:

اكتسب علم الدلالة دقةً علمية جديدة وأصبح فرعاً مستقلاً من فروع اللسانيات. مع الثورة السويسرية في مطلع القرن العشرين، فقد ميز فرديناند دي سوسير في "دروس في اللسانيات العامة" بين الدال المدلول باعتبارهما وجهي ورقة واحدة، مؤكداً أن "العلاقة بين الدال المدلول اعتباطية، وأن الدلالة تنشأ داخل منظومة من الفوارق لا في كل عنصر منفرداً"² وما يستفاد من هذا الطرح أن المعنى ليس جوهرًا ثابتًا كامناً في الألفاظ، بل هو حاصل علاقات متشابكة داخل منظومة لغوية، وهو مبدأ يضيء جوانب جوهرية من الأسلوب القرآني. وفي الدرس اللساني العربي الحديث، أسهم إبراهيم أنيس في "دلالة الألفاظ" برؤية ثرية تجمع بين المعطيات اللسانية الحديثة والموروث البلاغي العربي، وتعدّ هذه الدراسة من

¹ الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، برقيق محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992، ص55.

² دي سوسير، فرديناند. دروس في اللسانيات العامة، ترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجيبة. الدار العربية للكتاب، تونس، م1985، ص100-102.

أوائل المحاولات الجادة في التأسيس لعلم دلالة عربي حديث المنهج متجذّر في الخصوصية اللغوية.¹

يتبين من خلال استعراض مفهوم الدلالة في مستوياته المختلفة أنّ ثمة خيطاً جامعاً يربط بين المعنى اللغوي والتحديدات الاصطلاحية المتعاقبة، وهو خيط العلاقة بين الحاضر والغائب، أو بين الظاهر والمستتر. فمن الإرشاد والإبانة في المعنى اللغوي، إلى تثليث الدلالة عند ابن سينا بين مطابقة وتضمن التزام، إلى نظرية الاعتبارية السوسيرية، يتجلى أنّ الدلالة ليست ظاهرة ثابتة أو آلية بسيطة ينقل فيها معنى من لفظ إلى الذهن، بل هي فعل معقد يتشكّل في التقاطع بين اللفظ والسياق و الملتقى والثقافة. وفي ضوء ذلك، يغدو التعامل مع الدلالة القرآنية فعلاً مركّباً

يستوجب الانتباه إلى تعدّد مستوياتها وتداخلها، إذ لا يكفي الاختصار على الدلالة

المعجمية الوضعية للالفاظ دون استحضار

¹ أنيس، إبراهيم. دلالة الألفاظ، ص 24-26.

ما يُنتجه النظم والسياق والانزياح من أبعاد دلالية إضافية، وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عنه تحديداً في سورة المرسلات.

ثانياً: الانزياح

1. لغة:

يشتق مصطلح الانزياح من الجذر اللغوي "ز.و.ح"، وقد جاء في "لسان العرب": "زاح الشيء يزح ويروح زحاً وزيوحاً: ذهب وتباعد"، ومنه "زاح الهم" أي انكشف وابتعد. وجاء في المعجم الوسيط:

"زاح الشيء: ذهب وزال وتباعد عن موضعه".¹ ويحمل هذا الجذر في طياته دلالة جوهريّة ذات صلة وثيقة بالمفهوم الاصطلاحي، وهو ما يدلّ على أن اللغة العربية أدركت هذه الظاهرة من خلال صورة حسّية مُجسّدة هي صورة الشيء الذي ينتقل عن موضعه ويحتلّ فضاءً جديداً، وهو بالضبط ما يفعله الانزياح الأسلوبي حين يُعيد توزيع طاقة اللغة في غير موضعها المعتاد.

2. اصطلاحاً :

يُعرفُ الانزياح في الاصطلاح اللساني والأسلوبي عموماً بأنه "الخروج المقصود عن المعيار اللغوي السائد بهدف إنتاج أثر أسلوبي خاص". ويُستلزم في هذا التعريف توافر عنصرين أساسيين: وجود معيار مرجعي يقاس الانزياح بالنسبة إليه، وقصدية الخروج عنه الذي يُميزه

¹ ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب ١، مادة "روح"، ج 2، ص 296.

عن الخطأ اللغوي. وما يستحق التأمل في هذا التعريف أنه يجعل من الانتهاك الظاهر للمعيار شرطاً للجمال لا عائقاً أمامه، إذ أن الخروج المقصود هو الذي ينتج الدهشة الأسلوبية ويؤوظ انتباه المتلقي من سباته التعبيري.¹

3. الانزياح عند الفلاسفة :

لم يسمّ الانزياح بمصطلحه الحديث عند الفلاسفة القدامى، غير أن الظاهرة التي يشير إليها كانت حاضرة بقوة في تفكيرهم اللغوي والجمالي. فأرسطو في "فن الشعر" تحدث عن الاستعارة بوصفها "نقل اسم شيء إلى شيء آخر بنوع من التشابه".² وما يكشفه هذا التعريف أن أرسطو أدرك أن الانتقال الدلالي المقصود هو جوهر الإبداع الشعري، وأن القدرة على توليد الاستعارات الجيدة مَلَكةٌ طبيعية لا تُكتسب بالتعليم. وفي الفكر الفلسفي العربي الإسلامي، اعتنى أبو نصر الفارابي في "الألفاظ المستعملة في المنطق" بدراسة الانتقال الدلالي مُميّزاً بين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي، وهو تمييز يُجَلّي الأساس الفلسفي الذي يقوم عليه مفهوم الانزياح في صورته الحديثة.³

4. الانزياح عند القدامى:

في التّراث البلاغي العربي القديم، جرت الإشارة إلى ظاهرة الانزياح تحت مُسمّيات متعدّدة دون أن تحدّد بمصطلح جامع؛ فتحدّثوا عن "مخالفة الظاهر" و"الخروج عن الأصل"

¹ جون كوهن. بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ط2، 1994، ص23-25.

² أرسطو. فن الشعر، ترجمة وتعليق إبراهيم حمادة. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967، ص117.

³ الفارابي، أبو نصر محمد. الألفاظ المستعملة في المنطق، بتحقيق محسن مهدي. دار المشرق، بيروت، 1968، ص43.

و"العدول " و"الالتفات . "وقد تتبّع عبد القاهر الجرجاني هذه الظواهر بعمق في "أسرار البلاغة"، مُقررًا أن "الخروج عن الأصل في الاستعمال اللّغوي هو المصدر الأصيل للجمال الأسلوبي ومفتاح الإعجاز البياني".¹ وما يُميز هذا الطرح أن الجرجاني لا يعتبر هذا الخروج خطأً أو قصورًا، بل يراه قدرةً لغويةً عليا تكشف عن إمكانيات اللّغة الكامنة التي لا يقدر على استثمارها إلا المُبدعون، وهو موقف يسبق في دقته كثيرًا مما ستصل إليه الأسلوبية الحديثة.

5. الانزياح عند المحدثين :

في النقد الأدبي الحديث، يعزى الفضل في التأسيس النظري لمفهوم . الانزياح إلى جون كوهن في كتابه "بنية اللّغة الشعرية"، الذي عرّف الشّعر بوصفه "انزياحًا منظمًا عن معيار النثر".² وما يضيفه هذا التعريف أنّه يربط الانزياح بالنظام لا بالفوضى، أي أنّه خروج مُقنّن ومحسوب لا عشوائي. وفي الدّرس العربي الحديث، رأى عبد السلام المسدي في "الأسلوبية والأسلوب" أنّ "الانزياح ليس انتهاكًا للّغة بل هو توظيف لطاقتها الكامنة"،³ وهو تعقيب بالغ الأهمية إذ يعيد صياغة المفهوم الغربي في ضوء الخصوصية العربية، لما يجعله أكثر ملاءمةً لدراسة الانزياح القرآني الذي يستثمر إمكانيات العربية أعمق استثمار دون أن يُخلّ بقواعدها.

¹ الجرجاني، عبد القاهر . أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، 1991، ص11.

² كوهن، جون . بنية اللغة الشعرية . ا، ص29-31.

³ المسدي، عبد السلام. الأسلوبية والأسلوب . الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا، ط3، 1994م - ص89-92.

يكشف التتبع التاريخي لمفهوم الانزياح من المعنى اللغوي حتى التنظير الأسلوبي الحديث عن حقيقة جوهريّة: أنّ هذه الظاهرة لم تنشأ في اللسانيات الغربية الحديثة نشأةً مبتكرة من العدم ، بل هي امتداد نظري ومصطلحي لوعي بلاغي قديم كان حاضرا في الفكر اليوناني والعربي على حدّ سواء، غير أنّه لم يكن يمتلك الأدوات النظرية الكافية للتعبير عنه بمصطلح جامع. وما فعله كوهن وريفاتير ومن جاء بعدهم هو في جوهره إعادة تقنين لمفاهيم كانت مبنوثة في أعماق التراث النقدي العالمي. والأهم من ذلك أن الانزياح ليس عيبا أسلوبيا يُحكم على صاحبه بالخروج عن السليقة اللغوية، بل هو على العكس من ذلك تمامًا أعلى درجات التحكم في اللغة وأرقى مستويات توظيفها؛ لأن الانزياح الحقيقي يستلزم وعيا تامًا بالمعيار قبل الخروج عنه. وفي الخطاب القرآني تحديدًا يكتسب هذا الاستنتاج أهمية مضاعفة، إذ أنّ الانزياح القرآني ليس خرقا للغة العربيّة بل هو بلوغ لأقصى إمكاناتها التعبيرية، ممّا يجعله إعجازا أسلوبياً قبل أن يكون مجرد ظاهرة لغوية.

ثالثا: الخطاب :

1. لغة:

مادة "خ.ط.ب" في المعاجم العربية تدور حول معنى التّوجه بالكلام، جاء في "لسان العرب": "الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً".¹ كما تحمل هذه المادة دلالة الثقل والأهمية؛ يقال "هذا خطب جليل" أي أمر عظيم، ومنه الخطيب

¹ ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب ، مادة "خطب"، ج1، ص365.

الذي يُحتفى بكلامه لعظم شأنه. وما يُلاحظ في هذا الجمع بين معنى التوجه بالكلام ومعنى الجلالة والوزن أن المعجم العربي القديم ادرك بطريقة تلقائية ما ستقرره الدراسات الحديثة من أن الخطاب ليس مجرد تبادل لغوي محايد، بل فعل كلامي ذو ثقل اجتماعي وسلطة تأثيرية.

2. اصطلاحاً:

تتعدّد التعريفات الاصطلاحية للخطاب تبعاً للإطار النظري الذي يصدر عنه كل باحث؛ فمن الناحية اللسانية يُعرّف بأنه وحدة لغوية تتجاوز حدود الجملة، وتتشكّل داخل سياق تواصل يحدّد معناها ودلالاتها. وما يستخلص من هذا التعدّد التعريفي أن الخطاب مفهوم إجرائي متحول لا يستقر على تعريف جامع مانع، وهو ما يعكس ثراءه المعرفي وتشعب أبعاده، وفي سياق الدراسات القرآنية تحديداً يُستخدم المصطلح للدلالة على النص القرآني بكليته بوصفه فعلاً إلهياً موجّهاً إلى المتلقي وفق شروط تواصلية خاصة لا نظيراً لها في صيغته من الخطابات البشرية.¹

3. الخطاب عند الفلاسفة:

¹ خطابي، محمد. لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب. المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، 1991م، ص 15-17.

أسس أفلاطون في محاوراته لتصور رفيع للخطاب حين ميز بين خطاب الفيلسوف الرامي إلى الحقيقة وخطاب السفسطائي الرامي إلى الإقناع بأي وسيلة. وطور أرسطو هذا التمييز في "الخطابة" حين بنى نظريته على ثلاثية المتكلم (الإيتوس)، والانفعال (الباتوس)، والحجة (اللوغوس)، مُقرّاً أن "الخطاب الفعّال هو الذي يوظف الأركان الثلاثة توظيفاً متوازناً".¹ وما يفرزه هذا الطرح الأرسطي من دلالة أن الخطاب ليس مجرد بنية لغوية بل هو حدث تفاعلي يستدعي المرسل والمتلقي والسياق في آن واحد، وهو مدخل نظري بالغ الأهمية لفهم طبيعة الخطاب القرآني في علاقته بمتلقيه.

4. الخطاب عند القدامى:

في التراث البلاغي والنقدي العربي القديم، تضمّنت كتب البلاغة رؤى نظرية عميقة تتقاطع مع ما يُعنى به تحليل الخطاب الحديث؛ فقد اشتُرط علماء البيان مراعاة "مقتضى الحال" في الكلام، أي ملاءمة الخطاب للسياق والمقام ومستوى المتلقي، وقد أصّل لهذا المبدأ أبو يوسف السكاكي في "مفتاح العلوم". بقوله إنّ "كل مقام مقالاً".² وما يدلّ عليه هذا المبدأ أن البلاغيين العرب القدامى سبقوا التداوليين المحدثين في إدراك أن النص لا يُفهم بمعزل عن شروط إنتاجه وسياق تلقيه، وهو جوهر ما تؤسس له نظرية تحليل الخطاب اليوم ويعتبر كذلك مبدىء من مبادئ تداولية حديثة .

4. الخطاب عند المحدثين :

¹ أرسطو. الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات، الكويت، 1979، ص75-77.

² السكاكي، أبو يوسف يعقوب بن أبي بكر. مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987، ص160.

مع الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، شهد مفهوم الخطاب تحولاً جوهرياً تحت تأثير أعمال ميشيل فوكو الذي ربط الخطاب بمنظومة السلطة والمعرفة، مُقرّاً أنّ "الخطابات لا تعكس الواقع بل تُنتجه وتُشكّله وفق آليات اجتماعية وتاريخية محدّدة". وما يفيد بو هذا التصور الفوكوي أنه يُعيد النّظر في مفهوم الحياد اللغوي، ويجعل من كل خطاب موقفاً وسلطةً لا مجرد تبليغ. وعلى المستوى اللّساني، قدّم محمد خطابي في "لسانيات النص" تصنيفاً للمعايير التي يقوم . عليها الخطاب المتماسك من "اتساق وانسجام وقصدية وقبول وإعلامية وتناص وموقفية"¹ وهي معايير تتجلى بأرقى صورها في الخطاب القرآني الذي يحقق هذه الشروط جميعها في مستوى إعجازي لا يبلغه خطاب بشري يفضي استعراض مفهوم الخطاب عبر مراحلها الى استنتاج محوري : ان هذا مفهوم قد شهد تحولا من كونه مجرد فعل كلامي ثنائي القطب بين متكلم ومستمع الى كونه ظاهرة اجتماعية معرفية تُنتج المعنى وتُشكل الأدوار ، فالخطاب في ارقى صورته الحديثة ليس أداة لتعبير عن معنى سابق ومكتمل بل هو فضاء لإنتاج المعنى ذاته وتفاوضه.

رابعا: القرآن الكريم :

¹خطابي، محمد .لسانيات النص .، ص21-22.

1. لغة:

اختلف علماء اللغة في اشتقاق لفظة "القرآن" اختلافاً واسعاً، ويمكن إجمال هذا الخطاب في اتجاهين رئيسيين: الأول يرى أنها مشتقة من مادة "قرأ" بمعنى تلا و جمع الحروف ، فالقرآن مصدر غفران وكفران، ويذهب إلى ذلك القراء وجماعة من اللغويين و المفسرين. والثاني يقول إنها علم غير مشتق نُقل إلى هذا الكتاب المقدس كما نقلت التوراة والإنجيل، ويذهب إليه الشافعي ومن وافقه. وما يُستفاد من هذا الاختلاف أن الاسم نفسه يحمل دلالة جوهرية مرتبطة بطبيعة النص، إذ سواء أخذنا بالاشتقاق أم بالعلمية فإن المعنى يُحيل إلى نص مجموع يستدعي الصوت والأداء لا مجرد القراءة الصامتة.¹

2. اصطلاحاً :

عرف علماء أصول الفقه والعلوم القرآنية القرآن الكريم بأنه: "كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته".² وما يكشفه هذا التعريف الجامع أنه يجمع أربعة عناصر مميزة: أولاً العنصر الإلهي المصدري، والعنصر الثاني النبوي الوسيط، والعنصر الثالث التواتري الحافظ، والعنصر الرابع التعبدية الذي يُميزه عن سائر ما أثر من كلام النبوة. ومن هذه العناصر

¹ الزركشي، بدر الدين محمد. البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957، ج1، ص278.

² السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م ج1، ص168.

مجتمعةً ينبع التحدي الحقيقي الذي يواجه كل دارس يقرب بين أدوات التحليل اللساني الحديث وطبيعة هذا النص المتعالية.

3. القرآن عند الفلاسفة المسلمين:

اهتمّ الفلاسفة المسلمون بمسألة القرآن من زاوية إشكالية الوحي وعلاقته بالعقل؛ فقد تناول الفارابي وابن سينا النبوة والوحي ضمن نظريتهما في الفيض العقلي، إذ رأى ابن سينا أن "النبي هو الإنسان ذو القوة الحدسية العليا القادر على تلقي الفيض العقلي وترجمته في صور لغوية وخيالية مناسبة لاستيعاب العامة".¹ وما يستوقفنا في هذا الطرح —بصرف النظر عن الجدل الكلامي الذي أثاره — أنه يُسلط الضوء على إشكالية العلاقة بين المضمون الكوني المتعالي والصياغة اللغوية الخاصة، وهي إشكالية تقع في صميم دراسة الأسلوب القرآني والانزياح الذي يُميزه.

4. القرآن عند القدامى:

أعطى علماء الإعجاز القرآني من المتكلمين والبلاغيين قديماً أولويةً بالغة لدراسة طبيعة القرآن اللغوية والأسلوبية، انطلاقاً من إشكالية الإعجاز التي شكّلت محور التنافس الكلامي والبلاغي لقرون. وقد ذهب أبو بكر الباقلاني في "إعجاز القرآن" إلى أن "بلاغة القرآن لا تُدرك بمقاييس الشعر والنثر المعهودين بل هي ذات طبيعة خارقة تتجاوز معهود الفصاحة

¹ ابن سينا، الحسين بن عبد الله. رسالة في أسباب الحروف. في: تسع رسائل في الحكمة والطبيعات. دار العرب، القاهرة، 1908م، ص99.

البشرية".¹ وما يفيد به هذا التصور أنو يضع الإعجاز القرآني في مستوى يتجاوز المقاييس البشرية المعهودة، وهو ما يجعل الدرس الأسلوبي الحديث للقرآن مسعىً مشروعاً لا يُنكر، لكنه في الوقت ذاته مسعىً محدود النتائج ما لم يُصحب بوعي بخصوصية هذا النص وتعالیه.

5. القرآن عند المحدثين :

في الدراسات القرآنية الحديثة، سعى باحثون من خلفيات متعددة إلى تقريب مناهج تحليل الخطاب اللغوي الحديث من النص القرآني؛ فمن المنظور الأسلوبي تناول محمد أحمد خلف الله والسيد قطب الأسلوب القرآني بأدوات نقدية حديثة. ويرى فاضل صالح السامرائي في "التعبير القرآني" أن "الخطاب القرآني يختار من إمكانيات اللغة العربية أرقى صورها وأدقها تعبيراً عن المعنى المقصود، وأن هذا الاختيار لا يكون اعتباطياً بل له دائماً بعد دلالي وجمالي عميق".² وما يستخلص من هذه الرؤية أن الخطاب القرآني يقدم نموذجاً احتذائياً في اختيار الصورة اللغوية المثلى، وهو ما يلزم الدارس بالانتقال من مجرد الوصف الأسلوبي إلى التحليل الدلالي العميق الذي يكشف عن آليات هذا الاختيار وأسراره.

يتجلى من خلال مقارنة القرآن الكريم لغةً واصطلاحاً وعند الفلاسفة والقدامى والمحدثين أن هذا النص يحتل موقعاً متفرداً في خارطة الخطابات الإنسانية، لا من حيث قداسته الدينية

¹ الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب. إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر. دار المعارف، القاهرة، ط5، 1997م، ص35.

² السامرائي، فاضل صالح. التعبير القرآني. جامعة بغداد، بغداد، 1987، ص17-19.

وحسب، بل من حيث بنيته اللغوية وخصائصه الأسلوبية التي شكّلت على مدى قرون موضوعاً للتأمل والدراسة والجدل.

فقد انتبه القدامى الى أن القرآن يحدث في لغة العرب تعاملًا خاصاً لا يخضع لمقاييس الشعر المعروفة ولا لأعراف النثر المعهودة في حين حاول المحدثون تجسيد الهوية بين أدوات التحليل اللساني وهذا النص الاستثنائي.

والاستنتاج الأهم في هذا المقام هو أن القرآن الكريم في استخدامه للانزياح الصوتي والتركيبى، لا يوظفه توظيفاً جمالياً محضاً كما هو الحال في النص الأدبي، بل يُحوّله الى آلية دلالية خادمة لأغراض تبليغية وإقناعية وتأثيرية عليا، ومن هنا تتبّع أهمية دراسة الانزياح في صورة المرسلات تحديداً، إذ تمثل هذه السورة نموذجاً بارزاً متكامل الذي يجعل الشكل اللغوي جزءاً لا ينفصل عن المضمون الرسالي

الفصل الأول:

الأبعاد الدلالية للانزياح الصوتي في الخطاب القرآني-

سورة المرسلات أنموذجًا-

توطئة:

يُعدّ المستوى الصوتي من أكثر مستويات اللغة التصاقاً بالمعنى وأعمقها أثراً في المتلقي، إذ أن الصوت ليس مجرد قشرة خارجية تحمل الدلالة بل هو جزء بنيوي منها لا ينفصل عنها. وقد أدرك علماء العربية هذه الحقيقة مبكراً، فأفاضوا في الحديث عن الإيقاع والفاصلة والتكرار والجناس بوصفها ظواهر تسهم في صناعة المعنى لا مجرد تزيينه. وحين نصل إلى الخطاب القرآني نجد هذه الظاهرة قد بلغت فيه مبلغاً لا نظير لو في غيره من الخطابات؛ فالانزياح الصوتي القرآني ليس ترفاً جمالياً يضاف إلى المعنى من خارجه، بل هو مكون دلالي أصيل يتضافر مع البنى التركيبية والمعجمية في إنتاج نص لا يُدرك إلا بالنظر في مستوياته جميعاً.

ومن النماذج الاستثنائية التي تمثل ظاهرة الانزياح سورة المرسلات والتي تعتبر توظيفاً دلالياً مقصوداً ومحكماً. فمن الجملة التهديدية المتكررة "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" التي تعود عشر مرات في السورة، إلى بنية الإيقاع الصوتي المكثف في فواتحها، إلى الطاقة الصوتية الكامنة في حروف بعينها، تتشكل منظومة صوتية-دلالية متكاملة تستحق الدراسة التفصيلية والتحليل العميق.

أولاً: مفهوم الانزياح الصوتي وخصائصه في الخطاب القرآني :

1-تعريف الانزياح الصوتي وحدوده النظرية:

يُقصد بالانزياح الصوتي كل خروج مقصود عن النمط الصوتي المعتاد في الخطاب اللغوي العادي، سواء تجلّى ذلك في التكرار المنظم، أو في التوزيع الخاص للأصوات، أو في انتقاء حروف بعينها دون سواها، أو في بناء إيقاع متميز يُخالف نمط النثر الاعتيادي. وهو انزياح لأنه يتعمّد الخروج عن توقع المتلقي الصوتي، ويوجد بذلك طاقة تأثيرية لا تتوفر في الخطاب الصوتي المتوقع. وقد ميّز الباحث كمال أبو ديب بين الانزياح الذي يتجاوز النمط الإيقاعي ويكسره وبين ذلك الذي يُعليه ويكثّفه، مشيراً إلى أن كلا النوعين يُنتج أثراً دلاليّاً مختلفاً.¹

وفي الخطاب القرآني تحديداً يكتسب الانزياح الصوتي أبعاداً إضافية؛ فهو من جهة يندرج في سياق إعجازي يتحدّى الفصاحة البشرية المعهودة، ومن جهة أخرى يخدم غرضاً تبليغياً وتأثيرياً يتجاوز الغرض الجمالي المحض. فالجملة التهديدية المتكررة في سورة المرسلات مثلاً لا تتكرر لغرض موسيقي وحسب، بل لأن التكرار بوصفه انزياحاً عن التقدم الخطي المتوقع للنص يحدث في المتلقي صدمة دلالية تتركس في وجدانه يقين الوعيد وتُجدّد

¹ ينظر أبو ديب كمال، في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملبيين، بتوت، 1974، ص 89-91.

حضوره مع كل تكرار. ومن هنا تتشكّل العلاقة الجدلية بين الانزياح الصوتي والدلالة في هذا الخطاب: كل خروج صوتي عن المعتاد يُنتج انزياحاً دلاليّاً موازياً يُثري المعنى ويُعمّقه.¹ وحدود الانزياح الصوتي في الدراسات الأسلوبية الحديثة تشمل ظواهر متعددة، أبرزها: التكرار بأنواعه المختلفة من تكرار الأصوات إلى تكرار الكلمات والجمل، والجناس بما فيه من تقارب صوتي مع اختلاف دلالي، والفاصلة القرآنية بما تُحدثه من إيقاع منتظم يُميّز القرآن الكريم من غيره، وظاهرة التناسب الصوتي التي تجعل الصوت صدىً للمعنى وترجمةً حسية له. وجميع هذه الظواهر ستدرس بالتفصيل في مطالب هذا الفصل وفق ما تقدّمه سورة المرسلات من نماذج.

2-العلاقة بين الصوت والدلالة في الفكر اللغوي العربي والغربي:

تعود جذور الاهتمام بالعلاقة بين الصوت والمعنى إلى فجر الفكر اللغوي الإنساني. ففي الفكر اليوناني القديم دار الجدال الشهير في محاوره "كراتيلوس" الأفلاطونية حول ما إذا كانت العلاقة بين الأسماء والمسميات طبيعية أم اصطلاحية، وإن كانت الإجابة الأرسطية قد حسمت المسألة لصالح الاصطلاح، إلا أن الملاحظات العملية في الشعر والخطابة ظلّت تُشير إلى أنّ ثمة تناسباً ما بين بعض الأصوات وبعض المعاني.²

وفي الفكر اللغوي العربي، أسهم ابن جني في "الخصائص" بتأسيس ما يُمكن اعتباره نظرية عربية للعلاقة بين الصوت والمعنى، إذ أقرّ بوجود محاكاة صوتية في جانب من اللغة

¹ ينظر الحسناوي، أبو موسى محمد. الفاصلة في القرآن. دار الرفاعي، الرياض، 1986، ص 57-59.

² ينظر أفلاطون. محاوره كراتيلوس، ترجمة وتعليق عزت قرني. دار قباء، القاهرة، 1999م، ص 78.

العربية، ورصد جملة من الحروف وما تتطوي عليه من دلالات صوتية خاصة. فحرف الراء مثلاً يحمل دلالة التكرار والتردد، والسين يُوحى بالانسياب والرقّة، والضاد يحمل ثقلاً وشدةً تناسبان دلالاته في كثير من الكلمات التي يدخل فيها.¹ وهذا الكشف الابن-جني مهم لفهم الانزياح الصوتي القرآني، إذ أن اختيار أصوات بعينها في مقامات معينة ليس بريئاً من الدلالة

وفي اللسانيات الحديثة، أعاد رومان جاكوبسن في دراساته الشعرية الاعتبار للعلاقة الصوت-دلالة، إذ رأى أن الوظيفة الشعرية للغة تتحقق حين يُصبح الصوت جزءاً من المعنى لا حاملاً محايداً له. وطور هذه الفكرة لاحقاً ميخائيل ريفاتير الذي أكد أن الانزياح الصوتي يحدث ما أسماه "التغيير الأسلوبي" (stylistic change) "الذي ينبّه المتلقي ويشير إليه بأن ما يسمعه ليس كلاماً عادياً بل نصّاً مقصوداً ومحكماً. وتزداد أهمية هذه الملاحظات في تحليل القرآن الكريم بوصفه نصّاً تتضافر فيه الوظيفة الجمالية والوظيفة التبليغية في وحدة لا انفصام فيها¹

نستنتج من هذا أن الاختلاف الصوتي والأسلوبي يكتسب أهمية بالغة عند تحليل النصّ القرآني الكريم كونه نصّاً تتداخل وتتضافر الوظيفة الجمالية مع الوظيفة تبليغية بشكل معجز.

¹ عبد الهادي بن سهلة، الظاهرة الصوتية وابعادها الدلالية في النص، مجلة أبعاد لغوية جامعة تلمسان م ج 4. "مجلة أبعاد لغوية، جامعة تلمسان، مج4، ع2، 2018، ص16.12.

ثانياً: ظاهرة التكرار الصوتي في سورة المرسلات وأبعادها الدلالية :

1- بلاغة تكرار العبارات في الخطاب القرآني - "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ"

تُعدّ ظاهرة تكرار الجملة التهديدية "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" من أبرز الظواهر الأسلوبية في سورة المرسلات وأكثرها استرعاءً للإنتباه، إذ تتّردّد هذه الجملة عشر مرات متفرقةً على امتداد السورة في الآيات: 15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49. ولا يمكن أن يكون هذا التكرار الدقيق المنظم اعتباطياً أو مجرد إلحاق جمالي بالنص، بل هو انزياح صوتي مقصود يُنتج دلالة تهديدية تراكمية لا يُحدثها الذكر المفرد.

فمن الناحية الصوتية، يقطع هذا التكرار سريان السياق السردى والوصفى في السورة قطعاً مفاجئاً، ويُعيد المتلقي في كل مرة إلى نقطة محورية واحدة هي مصير المكذّبين. وهذا القطع المتكرر ينتج ما يمكن تسميته بالإيقاع التهديدي الذي يُشبه في بنيته موجات تتلاحق لا يكاد المتلقي يعدّل توازنه أمام إحداها حتى تضربه الأخرى بعنف متجدد¹ وقد أحسّ المفسرون القدامى بهذا الأثر وإن عبّروا عنه بأدوات مختلفة؛ فقال الزمخشري في الكشاف "إن التكرار يفيد التأكيد والتقرير، وإن تعدد المقامات الواردة قبل كل تكرار يجعل كل تهديد ردّاً على جريمة بعينها مما يُحكم التطابق بين الذنب والجزاء"¹ فنستنتج من هذا القول أنّ

¹ ينظر سيد قطب. التصوير الفني في القرآن. دار الشروق، القاهرة، ط10، 1993، ص100-104.

كل التكرار للآيات الوعيد في القرآن الكريم جاء لرد مباشر ومخصص لعقوبة جريمة معينة بناء على تغير سياق ومقام الآيات

ومن الناحية الدلالية، يُنتج التكرار العشري لهذه الجملة بنيةً دلالية ذات طبقات متعددة: الطبقة الأولى هي الدلالة التحذيرية المباشرة التي يُنتجها المعنى المعجمي للجملة، والطبقة الثانية هي الدلالة التراكمية التي تنشأ عن التكرار ذاته بما يُوحى بأن الجريمة تتكرر وتتكرر معها العقوبة، والطبقة الثالثة هي الدلالة الإيقاعية التي ينتجها الإيقاع الصوتي المتمثل الذي يُحكم الربط بين حالات الوعيد المختلفة ويجعلها منظومة واحدة متكاملة لا حوادث منفصلة.

ويظهر هذا النوع من التكرار كذلك في سور قرآنية قصيرة أخرى، أبرزها سورة الرحمن التي تتكرر فيها الآية "فبأي آلاء ربكمَا تكذَّبَان" إحدى وثلاثين مرة. والفارق الدلالي بين التكرارين جوهري: تكرار المرسلات جاء تهديدياً يُخاطب الوجدان بالخوف والوعيد، في حين جاء تكرار الرحمن استنكارياً يُخاطب الوجدان بالامتنان والتذكير بالنعم، ممّا يكشف أنّ التكرار في الخطاب القرآني ليس أداةً أسلوبية ذات وظيفة ثابتة بل هو آلية مرنة تُلوّن دلالتها وفق السياق الكلي للسورة¹

2- التكرار الصوتي المقطعي وظاهرة التجانس الصوتي:

إلى جانب التكرار الجملي الصريح، تزخر سورة المرسلات بتكرار صوتي أدق على مستوى المقاطع والحروف ، يُشكّل نسيجاً صوتياً متماسكاً يُعزّز دلالة السورة الكلية. ولعلّ

أبرز ما يلفت النظر في هذا الشأن طبيعة الفواصل الصوتية في السورة التي تغلب عليها الأصوات المهموسة والمنسجمة التي تُنتج إيقاعاً قرآنياً خاصاً يلائم جو السورة الإنذاري. فالفاصلة في سورة المرسلات تنتهي في معظمها بصوت النون الساكن سواء في صيغة الجمع المذكر السالم "المكذّبين" أو في غيرها، وهو صوت أنفي غناء يمتد بعد قصر المقطع الصوتي فيحدث رنيناً في الفضاء الصوتي يُشبه الصدى البعيد.¹

ويلاحظ كذلك تكثيف صوتي لافت في مطلع السورة في قوله تعالى: "وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا * فَالْمُنْفِياتِ ذُكْرًا". فهذه الآيات الخمس الأولى تقوم على بنية صوتية موحدة تجمع بين الجرس الصوتي للكلمات الأولى (عرفاً، عَصْفًا، نَشْرًا، فَرَقًا، ذُكْرًا) وتقارب لسارج الحروف في كلّ منها، مما يخلق تناغماً صوتياً يوحي بتسارع الوقائع وتتابعها على نحوٍ ينعكس مباشرةً في الإيقاع الصوتي المتسارعة. فالقسم بهذه الأشياء المتسارعة جاء في إيقاع صوتي متسارع موازٍ لها وهو توافق بين الشكل والمضمون يعدّ من أرقى صور الانزياح الصوتي الدلالي.²

وفي سورة الضحى المقارنة، نجد ظاهرة مماثلة غير أن إيقاعها مختلف تماماً: "وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى". هنا يغلب الصوت الطويل والإيقاع المتمهل الذي يلائم جو السورة المطمئن الحان، فيكشف التناظر بين السورتين أن الانزياح الصوتي في القرآن الكريم آلة دلالية دقيقة تُوظف بوعي تام وإحكام بديع.

¹ ينظر الحسنواوي، أبو موسى محمد. الفاصلة في القرآن . ص88-90.

² ينظر سيد قطب. في ظلال القرآن . دار الشروق ، القاهرة، ط25، 1996م، ج6، ص3734.

ثالثاً: الفاصلة القرآنية في سورة المرسلات وبعدها الدلالي:

1- مفهوم الفاصلة وتمييزها عن القافية:

اختلف العلماء قديماً وحديثاً في مصطلح الفاصلة القرآنية وتحديد ماهيتها بدقة، وذلك لأن استخدام مصطلح "القافية" عليها قد يُوحي بأن القرآن الكريم شعر، وهو ما نفاه الخطاب القرآني ذاته صراحةً في قوله تعالى: "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ". و قد استقر الاصطلاح على "الفاصلة" تمييزاً للقرآن الكريم عن الشعر وعن السجع المصنوع. وعرفها علماء علوم القرآن بأنها حرف أو أحرف تقع في نهاية الآية يتماثل في النص القرآني لتعطيه نظامه الإيقاعي الخاص، كما عرّفها الزركشي بأنها "حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسناً في الكلام".¹

والفارق الجوهرى بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية أن القافية الشعرية تلزم الشاعر بإيقاع ثابت يفقده أحياناً ويكرهه على توجيه المعنى خدمة للصوت، في حين يبدو في الفاصلة القرآنية أن الصوت يخدم المعنى لا العكس. والدليل على ذلك أن الفاصلة في القرآن الكريم لا تنتج معنى متكلفاً ولا تجر اللغة إلى مسارب غير مقصودة، بل يتسق صوتها دائماً مع معنى الآية ومعنى السياق الكلى. وهذا ما يجعلها انزياحاً صوتياً راقياً لا

¹ الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957، ج1، ص53.

صنعةً صوتيةً مفروضة.¹ ومن خلاصة ذلك نجد أن القافية الشعرية تقيد الشاعر وتجعل المعنى خادماً للمعنى تبعاً لمتطلبات السياق.

2- وظيفة الفاصلة الدلالية في سورة المرسلات :

تقوم فاصلة سورة المرسلات في الغالب على صوت النون المشدد أو المنون في نهايات الآيات، ويلاحظ أن هذا الاختيار الصوتي ليس عشوائياً، إذ أن صوت النون بما يحمله من غنة وامتداد يلائم الجو الإنذاري الموقف للسورة ويضيف عليها طابعاً من الرهبة المستمرة التي لا تنقطع مع آخر كل آية. وقد رصد محمد أحمد خلف الله في دراسته للأسلوب القرآني "أن الفواصل القرآنية تسهم في خلق ما أسماه "التوقع الإيقاعي" لدى المتلقي، وهو توقع يشكل نوعاً من التعاقد الصوتي غير المعلن بين النص وقارئه يجعل كل انكساره أو تعديله ذات دلالة خاصة".²

ففي قوله تعالى في السورة: "أَلَمْ لَنَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَامَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا"، تتوافق الفواصل الصوتية مع المعاني التي تحملها: في "كفَاتًا" تنتهي بالتثنية المنفتح الذي يوحي بالسعة والامتداد مما يلائم دلالة الاحتواء والكفت، و"أمواتًا" تحمل في فاصلتها ثقلاً صوتياً يُناسب ثقل الموت وسكونه، و"فَرَاتًا"

¹ السيوطي، جلال الدين. الإتيقان في علو القرآن، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ج2، ص 345-

² خلف الله، محمد أبضد. الفن القصصي في القرآن الكريم. سينا للنشر، القاهرة، ط4، 1999، ص88-91.

بفاصلتها الخفيفة الرشيقة ثلائم دلالة الداء العذب وانسيابه. وهكذا يتحول الصوت إلى تعزيز صامت للمعنى يُحسّه المتلقي في وجدانه قبل أن يدركه بعقله.¹

وفي المقابل، نجد في سورة الكوثر أنموذجاً مختلفاً للفاصلة: "إِنَّ أُعْطِيَكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ". الفواصل هنا تنتهي بالراء المفخمة التي توحى بالقوة والصلابة، وهو صوت يلائم جوّ السورة التي تفيد بصرامة أن الخصم هو الأبتَر لا النبي المُخاطب. فالصوت يُعزز دلالة الردّ والحسم ويعطيها ثقلًا يتجاوز ما تعطيه الكلمات وحدها.

3- انكسار الفاصلة الصوتية وأثرها الدلالي:

من أدقّ مظاهر الانزياح الصوتي في سورة المرسلات ما يُمكن تسميته بـ"انكسار الفاصلة المُتوقّعة"، وهو حين يخالف الإيقاع الصوتي نمطه المستقر فيحدث انزياحاً داخل الانزياح، متنبها المتلقي إلى لحظة دلالية استثنائية تستوجب هذا الخروج. ففي السّورة، ولدى التأمّل في الإيقاع العام للفواصل المُنتهية بالنون والتّنين، يُلاحظ أن بعض الآيات تخرج عن هذا النمط في لحظات بعينها تحمل دلالة مكثفة تتطلب إيقاعاً مغايراً.²

وهذه الظاهرة حاضرة في القرآن الكريم عموماً بصورة تدل على وعي أسلوبى رفيع بقيمة الخروج عن المُتوقع في تحقيق الأثر الدلالي. ففي سورة الشعراء مثلاً، تتكرر الفاصلة "وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" في نهاية كل قصة من قصص

¹ الطاهر بن عاشور، محمد. التحرير والتنوير. دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997، ج29، ص355-835.

² ينظر أبو موسى الحسناوي، محمد. الفاصلة في القرآن، ص120-122.

الأنبياء، وهذا التكرار ينشئ إيقاعاً تعليمياً راسخاً يجعل كل قصة تُقضى إلى الخلاصة الكبرى ذاتها، مما يُعزز القصد التعليمي والتأملي للسورة.¹

رابعاً: ظاهرة الجناس الصوتي في سورة المرسلات وأبعادها الدلالية

1-أنواع الجناس الصوتي ودلالاتها:

الجناس في الاصطلاح البلاغي "هو تشابه لفظين في اللفظ واختلافهما في المعنى، وهو من أبرز صور الانزياح الصوتي لأنه يقوم . على التقارب الصوتي الذي يبرز التباعد الدلالي، مُنتجاً بذلك صدمة دلالية تجعل المعنى أكثر حضوراً وأقوى وقعاً".² وقد قسمه البلاغيون إلى أنواع عديدة، أبرزها: الجناس التام الذي يتطابق فيه اللفظان في الحروف والترتيب مع اختلاف المعنى، والجناس الناقص الذي يختلف فيه اللفظان بحرف واحد أو بالحركة، والجناس الاشتقاقي الذي يجمع بين مشتقات الجذر الواحد.

في سورة المرسلات، يتجلى الجناس الاشتقاقي في قوله تعالى: "وَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا"، إذ تتقارب "العاصفات" و"عصفاً" في المادة الجذرية مع اختلاف في الصيغة الصرفية، فيُنتج هذا التقارب الصوتي-الاشتقاقي دلالة تأكيدية قوية يصفها النحويون بالمفعول المطلق المؤكّد وهو في الحقيقة انزياح صوتي-دلالي مزدوج: يؤكد المعنى ويُعمّق تأثيره الحسي في

¹ ينظر سيد قطب، في ظلال القرآن ، ج4، ص2521.

² العسكري، أبو هلال . كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية، بيروت ، 198م، -ص-350-348.

الوقت ذاته.¹ والأمر نفسه ينطبق على "الناشِراتِ نشراً" و"الفَارقاتِ فرقا" في آيات القسم المفتحة، إذ ينشئ هذا التّوازي الجناسي إيقاعاً مزدوجاً: إيقاع بنيوي-تركيبّي وإيقاع صوتي-جرسي يُحكم وحدة المطلع ويُجلي دلالة التسارع والتّتالي.

¹ ينظر أبو موسى، محمد. خصائص التّراكيب ، ص 258-260.

2-الجناس في السور القرآنية القصيرة الأخرى ومقارنته بسورة

المرسلات:

تُقدّم السور القرآنية القصيرة نماذج بالغة الثراء للجناس الصوتي ووظيفته الدلالية. ففي سورة الغاشية، يتجلى التقارب الصوتي في قوله تعالى: "تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً" في مقابل الوصف الإيجابي للمؤمنين، إذ يحمل الصوت اللغوي لكلمة "لاغية" ثقلاً وقبحاً صوتياً يلائم قبح اللغو ودناءته.

وفي سورة الهمزة: "وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ"، يُمثل التقارب الصوتي بين "همزة" و"لمزة" نموذجاً فريداً للجناس الناقص الذي يُنتج دلالة ازدواجية: تتشابه الكلمتان في البنية الصوتية لأنّ الفعلين متشابهان في الطبيعة والوظيفة الاجتماعية الدميمة. وهذا التوافق بين التشابه الصوتي والتشابه الدلالي-الأخلاقي أمر بالغ الدقة يكشف عن حكمة الانزياح الصوتي القرآني.¹

في سورة العاديات يبلغ الانزياح الصوتي-الجناسي ذروة أخرى في قوله تعالى: "فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا"؛ فالتقارب الصوتي بين "قَدْحًا" و"صُبْحًا" مع تباعد دلالتيهما ينتج جرساً صوتياً يُحاكي إيقاع الخيل المتسارعة ويُجسّد المشهد الحركي بأمانة صوتية بديعة. ويشير أبو موسى محمد الحساوي في الفاصلة في القرآن إلى أن هذا النوع

¹ ينظر فضل صلاح. أساليب الشعرية المعاصرة. دار الآداب بيروت، 1995، ص 145-148.

من الجناس الصوتي المرتبط بحركية المشهد الموصوف هو من أرقى ما أنتجه الخطاب القرآني من انزياحات صوتية ذات بعد دلالي مباشر".¹

خامسا: الإيقاع الصوتي وتمثيل الدلالة الحركية و الوجدانية :

1- محاكاة الصوت للمعنى الحركي في سورة المرسلات:

من أرقى صور الانزياح الصوتي الدلالي ما يعرف في اللسانيات الحديثة ب"المحاكاة الصوتية" (Onomatopoeia) أو ما هو أشمل منها وهو "الرمزية الصوتية (Sound symbolism)، وهو ما يجعل الصوت يُحاكي المعنى محاكاةً تتجاوز الكلمات الصوتية الصريحة كالهدير والصرير نحو انسجام أعمق بين الطابع الصوتي الكلي للنص ودلالته الحركية أو الوجدانية".²

وفي مطلع سورة المرسلات: "وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عَذْرًا أَوْ نَذْرًا"، تُنتج الأصوات المتقاربة في المخرج مع تنويع الحركات الصوتية إيقاعًا متسارعًا يُحاكي حركة الرياح والملائكة المتتالية، وهو تصوير صوتي للحركة الكونية يسبق التصوير المعجمي ويُعزّزه. وقد أشار سيد قطب في ظلاله إلى أنّ هذا المطلع القسمي يستحضر في وجدان المتلقي صورة الحركة الكونية

¹ الحسنائي، أبو موسى محمد. الفاصلة في القرآن. المرجع السابق، ص135-137.

² حسان تمام. اللغة العربية معناها ومبناها. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979م، ص204-207.

المتلاحقة قبل أن يدرك عقله دلالة كل مفردة، ممّا يكشف أن الانزياح الصوتي ههنا يعمل على مستوى ما قبل اللغة في الوجدان الإنساني.¹

ويُقدّم قوله تعالى في السورة: "إنها تذرّمي بشرٍ كَالْقَصْرِ" نموذجًا آخر بالغ الدقة؛ فحرف الراء المكرر في "ترمي" و"شرر" يحاكي صوتيا حركة الرمي وصوت تطاير الشرر، إذ أنّ الراء من أكثر الحروف العربية حركيةً ودلالةً على التكرار والتّردد كما رصد ذلك ابن جني. فـصوت الآية يُجسّد مشهدها قبل أن يصوره المعنى المعجمي، وهذا التضافر بين الانزياح الصوتي والإبداع التصويري هو ما يشكّل عمق الأسلوب القرآني وإعجازه.

2- الانزياح الصوتي ودلالة الترهيب والإقناع الوجداني:

تمثل سورة المرسلات نموذجًا نادرًا في توظيف الانزياح الصوتي خدمةً لغرض الترهيب والإقناع الوجداني، وهو غرض يتجاوز مجرد التأثير الجمالي ليصبح آليةً من آليات الإبلاغ القرآني العميق. فالبنية الصوتية للسورة بإيقاعها التهديدي المتكرر وفواصلها الغنائية الرهيبة لا تخبر المتلقي بعاقبة المكذِبين فحسب، بل تشعره بها وتجسّدُها في وجدان تجسّيدًا يجعلها أقرب إلى اليقين الحسيّ منها إلى المعلومة العقلية.²

¹ ينظر قطب، سيد. في ظلال القرآن ، ج6، ص3732.

² ينظر سيد قطب. التصوير الفني في القرآن . ص112-115.

وهذا ما يُفسّر السبب في أن التراث الإسلامي يرصد أثراً بالغاً لتلاوة سورة المرسلات على وجدان السامعة الأوائل؛ فقد روى البخاري في صحيحه أن أم الفضل سمعت ابن عباس يقرأ "وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا" فقالت: "يا بني لقد ذكرّرتي بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت رسول الله يقرأ بها في المغرب". وفي هذه الرواية ما يُشير إلى أن التأثير الصوتي للسورة كان عميقاً في الوجدان حتّى التصق في الذاكرة. والسبب في هذا التأثير يعود في جانب كبير منه إلى الانزياح الصوتي الذي يجعل السورة تؤثر في حواس المتلقي ووجدانه قبل أن تُكلم عقله.¹

وللمقارنة، نجد في سورة الفجر نموذجاً صوتياً مختلفاً في آلية التأثير الوجداني: "وَالْفَجْرِ * وَلَيَالِي عَشْرِ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ". هنا يعمل الإيقاع الصوتي بتمهّل وهدوء يوحيان بعمق التأمل لا بعنف التهديد، وتأتي الفواصل الرخيمة لتقيم ذلك الجو من التأمل الكوني الذي يُعدّ مقدمة لما سيأتي من وصف للتدمير والعذاب. وهكذا يُمثّل التناقض الصوتي بين المقدمة والمضمون انزياحاً مزدوجاً يُجاء بالهول على المتلقي من مسار لا يتوقعه.

سادساً : نماذج مقارنة من السور القرآنية القصيرة :

1- الانزياح الصوتي في سورتي الزلزلة والقارعة:

¹ ينظر البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، بتحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة، 1422هـ، كتاب الأذان، باب القراءة في المغرب، ج1، ص241، حديث رقم763.

تُقدّم سورة الزلزلة نموذجًا بليغًا للانزياح الصوتي الخادم للدلالة الحركية في قوله تعالى: "إذا زلزلت الأرض زلزالها". فكلمة "زلزلت" تقوم على التكرير الصوتي الذي يُحاكي الحركة الاهتزازية للزلازل ويُجسّدُها صوتيًا قبل أن يصورها المعنى، إذ أنّ التكرير في البنية الصرفية للكلمة يُؤازي التكرار الحركي في الزلزال ذاته.¹ وفي المصطلح الصوتي الحديث يُسمّى هذا النوع من التكرير الصوتي الذي يُحاكي الحدث "المضاعفة الصوتية الدلالية"، وهي من أوضح صور الرمزية الصوتية في اللغة.

وتتوالى في السورة صوّر الانزياح الصوتي في "وأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا"، إذ يحمل صوت القافي "أثقالها" ثقلًا صوتيًا وجهريًا يناسب دلالة الثقل الأحمال، ويتقاطع ذلك مع ما رصده ابن جني من أنّ حرف القاف يحمل في طائفة كبيرة من كلمات العربية دلالة القوة والصلابة والثقل.

"ومن المثير أن هذه السورة القصيرة جدًا (ثمانى آيات) تجمع في مساحة صوتية ضيقة جملة من الظواهر الصوتية الانزياحية مما يدل على كثافة الطاقة الصوتية-الدلالية في الخطاب القرآني حتي في أقصر صوره.²

أمّا سورة القارعة، فيكفي الوقوف عند عنوانها الذي هو الكلمة الأولى منها: "القَارَعَةُ"، إذ يحمل صوتها الانفجاري المتقدم . في القاف والرأء المُكررة في "قَارَعَةُ" طاقة صوتية ضاربة تحاكي القرع والضرب والصّدمة قبل أن يُخبرنا المعنى بأنّها اسم من أسماء القيامة.

¹ ابن جني، أبو الفتح عثمان . الخصائص . ج2، ص161-163.

² عباس، فضل حسن . إعجاز القرآن الكريم . دار الفرقان، عمان، ط2، 1991، ص212-215.

ثم يأتي التكرار الصوتي في "القَارَعَةُ * مَا الْقَارَعَةُ * وَمَا أدراك مَا الْقَارَعَةُ" لِيُشكِّل انزياحًا تكراريًا متصاعدًا يضاعف الطاقة التهديدية مع كل تكرار على نحوٍ يُشبه التّصاعد الموسيقي في السمفونية قبل أن تبلغ ذروتها.¹

2- الانزياح الصوتي في سورتي التكوير والانفطار :

تفتتح سورة التكوير بسلسلة من الجمل الفعلية القصيرة المتتالية ذات الإيقاع الصوتي المتسارع:

"إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ". فهذا التتالي السريع لأفعال المبني المجهول في فواصل قصيرة متجانسة صوتيًا يُخلق إيقاعًا صوتيًا يُحاكي سرعة الأحداث الكونية وتتابعها وهي تنهار في يوم . القيامة. وقد لاحظ الباحث صلاح فضل في "أساليب الشعرية المعاصرة" أنّ هذا النمط من التوالي السريع للوحدات الصوتية القصيرة ينتج ما أسماه "الإيقاع الموجي" الذي يُشبه موجات المتلاحقة لا يكاد المتلقي يستوعب إحداها حتى تضربه الأخرى.²

وفي سورة الانفطار يُوظف الانزياح الصوتي بآلية مختلفة وإن تشابهت الغاية: "إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْثَرَتْ * وَإِذَا الْبَحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ". والملاحظ هنا أنّ أصوات الفواصل تتضمّن تكثيفًا لحروف الشدة كالراء والتاء التي تحمل دلالات الانتثار والانفجار والبعثرة، ممّا يجعل الصوت مرآةً للمعنى يضاعف أثره الدلالي.

¹ ينظر فضل، صلاح. أساليب الشعرية المعاصرة. 1، ص 152-154.

² فضل، صلاح. أساليب الشعرية المعاصرة ، ص 158-160.

وهذا التوافق بين صوت الفاصلة ودلالة الفعل هو نموذج بارز لما يسميه ريفاتير "الاتساق الأسلوبى" الذي يجعل النص وحدة متكاملة لا ينفصل فيها الصوت عن الدلالة.¹

3 الانزياح الصوتي في سورة الشمس والضحي:

تمثل سورة الشمس درسًا بليغًا في توظيف الانزياح الصوتي لخدمة الغرض التأملى والتعليمي في آن واحد. ففي قوله تعالى: "وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها * النَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا النَّفْسُ وَمَا سَوَّاهَا"، تتوالى الفواصل المنتهية بألف المقصورة الممدودة في تجانس صوتي استثنائي ينشئ إيقاعًا هادئًا وعميقًا يلائم جو التأمل الكونى الذي تستدعيه السورة.²

ففاصلة الألف المقصورة بما تحمله من مدّ وانفتاح تُوحى بالاتساع الكونى الذى تتحدث عنه الآيات، وهذا الانسجام بين الصوت الممتد ودلالة الاتساع الكونى هو ضرب رفيع من الانزياح الصوتي-الدلالي. ويقارن الدكتور تمام حسان بين هذه السورة وسورة الشعراء "حيث يختلف الإيقاع الصوتي للواصل اختلافا جذريًا يُلائم الغرض الحجاجي-السردي في الأخيرة"، مُستنتجًا أن الخطاب القرآني يُوظف الانزياح الصوتي توظيفًا وظيفيًا دقيقًا يُلائم في كل سورة مقاصدها التبليغية الخاصة.³

سابعاً: القيمة التفسيرية للانزياح الصوتي في فهم الدلالة القرآنية

¹ ريفاتير، ميخائيل. مقتطفات من أعماله الأسلوبية في: أساليب الشعرية المعاصرة لصلاح، ص 94-96.

² ينظر حسان، تمام. اللغة العربية معناها ومبناها، ص 217-219.

³ ينظر حسان، تمام، ص 217-219.

1- الانزياح الصوتي في ضوء التفسير البلاغي القديم:

لم يغفل علماء التفسير والبلاغة القدامى عن الأثر الدلالي للبنية الصوتية في القرآن الكريم، وإن جاءت ملاحظاتهم في الغالب مبعثرة في ثنايا التفسير البلاغي لا منظمّة في إطار نظري جامع.

فقد أشار الزمخشري في "الكشاف" بصورة متكررة إلى ما يُسميه "الجرس اللفظي" و"حسن الموقع في السمع"، معترفًا بأن للصوت دوراً في تشكيل الأثر الدلالي للآية لا يدركه التحليل لمعجمي وحده.¹

وأبعد من ذلك ذهب الطاهر بن عاشور في "تفسير التحرير والتنوير" الذي أفرد اهتماماً خاصاً بما أسماه "الإيقاع المعنوي" في القرآن الكريم، مُقرراً أن الفواصل القرآنية لا تُختار لمجرد الإيقاع الصوتي بل لأنها تُلائم المعنى وتُكمّله وتُعزّزه. وفي تفسيره لسورة المرسلات تحديداً، أشار ابن عاشور إلى أن تكرار "وَيْلٌ يَوْمئذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" جاء "تجديداً للوعيد كلما مضى ذكر نعمة من نعم الله أو دليل من الأدلة على قدرته، لأنّ إنكارها وهي ظاهرة جليّة يستوجب أشد الوعيد".² وهذا التحليل يُدرك بطريقة غير مباشرة الوظيفة الانزياحية للتكرار الصوتي دون أن يُسمّيها بمصطلحها الأسلوبي الحديث.

2- الانزياح الصوتي بين التفسير الأسلوبي الحديث والفهم الإعجازي:

¹ الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف، ج4، ص670.

² ابن عاشور، الطاهر. التحرير والتنوير، ج29، ص360.

يُشكّل التّلاقي بين الدراسة الأسلوبية الحديثة للانزياح الصوتي وإشكالية الإعجاز البياني للقرآن الكريم مجالاً خصباً من مجالات البحث التي لا تزال تحتاج إلى تعميق. فإذا كان الإعجاز البياني يعني " في مستوى منه " أن هذا النصّ ينتج أثراً بيانياً خارقاً لا يُحاكيه النثر البشري، فإنّ دراسة الانزياح الصوتي الدلالي هي إحدى الطرق العلمية للكشف عن آليات هذا الأثر وتفصيل أسبابه.¹

ويرى الدكتور فضل عباس في "إعجاز القرآن الكريم" أنّ الانزياحات الصوتية القرآنية تعمل على مستوى لسانيّ متعال لا تبلغه القصيدة البشرية في الغالب، لأنها لا تُقدّم . الصوت بديلاً عن المعنى أو زينةً له بل تجعله حاملاً للمعنى وموسّعاً لآفاقه ومُعمّقاً لأثره في آنٍ واحد. وهذا التمييز الدقيق بين الصوت الزينة والصوت المعنى هو ما يُحدد الفارق الجوهرى بين الانزياح الصوتي في الشعر العربي وإن بلغ أعلى درجاته والانزياح الصوتي في الخطاب القرآني.²

خلاصة الفصل الأول:

يتبين من خلال دراسة الأبعاد الدلالية للانزياح الصوتي في سورة المرسلات والسور القرآنية القصيرة المقارنة أنّ هذا الانزياح لا يُمثل زخرفةً صوتيةً تُلحق بالمعنى من خارجه، بل هو مكّون دلاليّ بنيوي يُشارك في إنتاج المعنى وتُشكيله وتكثيفه وتوجيه أثره الوجداني في المُتلقي. وقد كشفت الدّراسة التفصيلية لظواهر التكرار الجملي والصوتي المقطعي

¹ الباقلائي، أبو بكر محمد. إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر. دار المعارف، القاهرة، ط5، 1997م، ص148-151-454.

² عباس، فضل حسن. إعجاز القرآن الكريم، ص220-222.

والفاصلة القرآنية والجناس الصوتي و محاكاة الصوت للمعنى الحركي عن منظومة متكاملة و متظافرة تشتغل على مستويات متعددة في آنٍ واحد.

والأهم من ذلك أن هذا الانزياح الصوتي في سورة المرسلات يتحول في كل تجلٍّ من تجلياته إلى آلية دلالية خاصة: فالتكرار الجملي يُنتج دلالة تراكمية تهديدية، والفاصلة المنظمة تُنشئ دلالة إيقاعية توقعية، وانكسار الفاصلة يُولد دلالة استثنائية تلفت النظر، والجناس الصوتي يُنتج دلالة تأكيدية وتعزيزية، ومحاكاة الصوت للمعنى تُحوّل الدلالة من المستوى العقلي-المعجمي إلى المستوى الحسي-الوجداني. وجميع هذه الأبعاد مجتمعةً هي ما يجعل الانزياح الصوتي القرآني في سورة المرسلات نموذجاً فريداً في تاريخ الخطاب اللغوي الإنساني.

الفصل الثاني:

الأبعاد الدلالية للانزياح التركيبي في الخطاب القرآني -

سورة المرسلات أنموذجا-

تمهيد:

يُعدّ الانزياح التركيبي من أبرز الظواهر الأسلوبية في الخطاب القرآني، إذ يخرج النظام اللغوي عن مساره المألوف ليفضي إلى دلالات جمالية وإيحائية عميقة. وتتجلى مظاهر هذا الانزياح في سورة المرسلات من خلال ثلاث آيات رئيسية هي: الالتفات، والحذف، والتقديم والتأخير، وكلُّ منها يُشكّل بُعداً دلالياً خاصاً يستدعي الوقوف عنده وتحليله. وقبل الخوض في تفاصيل هذه الظواهر، لا بدّ من التعريف بسورة المرسلات التي تُمثّل ميدان الدراسة وموضع التطبيق، لنضع القارئ في سياق الخطاب الذي نتناوله بالبحث والتحليل.

التعريف بسورة المرسلات:

هي السّورة السابعة والسبعون في ترتيب القرآن، تتكون سورة المرسلات من خمسين آية (50 آية).

أولا / تسمية السّورة وسبب التسمية:

سُمّيت هذه السورة الكريمة بـ(المرسلات) نسبةً إلى مطلعها الذي أقسم فيه بـ(المرسلات عُرُفاً)، وهي أولى كلمات السورة.

ثانيا/أبرز ما يميزها :

جاء اسم السّورة من الآية الأولى فيها: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾، وقد اختلف في معنى المرسلات: فقيل هي الملائكة المرسلّة بأمر الله، وقيل هي الرّياح المرسلّة بأمر الله، وقيل هي الرّسل الكرام. والرّاجح عند كثير من المفسّرين أنّها الملائكة كما تُعرف السّورة أيضاً بـ(سورة عُرُفاً) نسبةً إلى الجزء الثاني من الآية الأولى.

ثالثاً: نزول السّورة:

السورة مكية بالإجماع، أي أنّها نزلت في مكّة المكرمة قبل هجرة النّبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة .

نزلت السّورة في مرحلة مبكرة من مراحل الدّعوة الإسلامية بمكة المكرمة، وهي من السّور التي نزلت في فجر الإسلام و تعدّ سورة المرسلات من السّور المكية المبكرة، وقد ذكر بعض العلماء أنّها نزلت في مرحلة متقدمة من مراحل النزول بمكة حديث ابن مسعود رضي الله عنه روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه كان مع النّبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى حين نزلت عليه سورة المرسلات .

رابعاً: موضوعات السّورة ومحاورها الرئيسيّة:

افتتحت السّورة بقسم عظيم بالمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات ذكراً، وهذه الصّور تُصوّر عظمة الخلق وقدره الله تعالى. أكّدت السّورة على حتمية يوم القيامة ووقوعه، وذلك بالأدلة الكونية والعقلية، وتصوير أهواله وما يقع فيه من حساب ومحاسبة، وتكذيب المكذبين وتهديدهم .

تكرّرت في السّورة الكريمة آية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، ممّا يُعدّ أسلوباً قرآنياً فريداً في التأكيد والتحذير والإنذار.

خامساً : فضائل السّورة

لم يرد حديث صحيح خاص بفضل قراءة سورة المرسلات منفردة، وينبغي التحذير من الأحاديث الموضوعة والضعيفة المنسوبة لفضلها أمّا فضلها العام تشاركها الفضل العام مع سائر سور القرآن الكريم في كون قراءة القرآن عبادة ويؤجر عليها القارئ بكل حرف عشر حسنات كما ثبت في الصحيحين أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة المرسلات في صلاة المغرب، كما جاء في حديث أم الفضل رضي الله عنها: (آخر ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بـ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ .

ثامناً: الخصائص الأسلوبية والبلاغية:

تتجلّى الخصائص الأسلوبية والبلاغية في السّورة المرسلات من خلال أسلوبها الموجز والمكثف الذي يحمل معاني عميقة بألفاظ قليلة، وقد أفتتحت بالقسم المتعدد عبر خمسة أقسام دلالة على أهمية المقسم عليه وعظمه. كما تمتاز السّورة بالتصوير الفني الحي، ويظهر ذلك في رسم صور بصرية متحركة كالريّح، والسحاب، والجبّال، والبحار في سياق إثبات القدرة الإلهية. ويبرز التكرار القرآني في مواضع عدة كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾، وهو تكرار بليغ يؤدي وظيفة بلاغية وتربوية عالية بدلاً من أن يكون مجرد تكرار عادي، ليتناغم كل ذلك مع الإيقاع الصوتي المتناسق للسورة والقائم على الفواصل القصيرة؛ مما يتناسب تماماً مع أجواء التهديد، والوعيد، والإنذار.

تاسعاً: الدروس والعبر المستفادة من السورة:

تتجلى في السورة الكريمة مجموعة من الدروس والعبر الإيمانية والتربوية؛ حيث تؤكد أولاً أن الإيمان بيوم القيامة ركنٌ أساسي من أركان الإيمان التي لا يقبل الله عز وجل ديناً بدونها. كما تحذر السورة من مغبة التكذيب بالحق، مبيّنة أنه مهلكة للنفس والمجتمع، وعاقبته الويل والعذاب الشديد. ومن جانب آخر، تدعو الآيات إلى التأمل في آيات الكون الكبرى باعتبارها شواهد دالة على قدرة الله تعالى التي يجب التدبر فيها. وترسخ السورة قاعدة ربّانية عادلة وهي أن الجزاء من جنس العمل؛ فبينما يتقلب المتقون في النعيم، يذوق المكذبون مرارة العذاب. وختاماً، تخلص السورة إلى أن التقوى هي الطريق الوحيد والسبيل الأوحى لنجاة الإنسان والفوز في الدنيا والآخرة.

المبحث الأول: الالتفات: تمهيد :

الالتفات ظاهرة بلاغية بارزة تتجلى بصورة واضحة في القرآن الكريم، وقد أسهمت دلالاته النفسية وأغراضه البلاغية في إبراز فاعليته التعبيرية والتأثيرية داخل الخطاب القرآني. وهذا ما يُثري الدراسات البلاغية القرآنية ويُعمّقها، ذلك أن بلاغة القرآن الكريم لا تقتصر على الجمال اللفظي وعمق المعنى فحسب، بل تمتد لتشمل أساليب لم تتل حظّها الكافي من البحث والدراسة، في مقدّمتها أسلوب الالتفات. فهذا الأسلوب يوجّه القارئ والمتلقي على حدّ سواء نحو معانٍ ضمنية وأغراض بلاغية دقيقة، ويُجسّد طريقةً تعبيريةً تتسم بالجِدّة والإبداع، وذلك من خلال التوظيف الأدبي والبلاغي الذي جاء اقتداءً بما ورد في النصّ القرآني الكريم .

المبحث الأول الالتفات :

أولاً: تعريف الالتفات:

1. لغة :

الالتفات مأخوذ من التفت التفاتاً، و"التلفت" أكثر منه وتلفت إلى الشيء، التفت إليه، صرف وجهه إليه، ويقال لفت فلاناً عن رأيه، أي صرفته عنه، ومنها "الالتفات" ¹

وقد وردت لفظة "الالتفات" في موضعين من القرآن الكريم". الموضع الأول: قوله تعالى

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾ ² . فالالتفات هنا بمعنى "التخلف" أي لا يتخلف أو لا ينظر ورائه ³ ففي النصّ القرآني أمر بترك التلفت لحكمة ربّانية سامية، تنجيهم من العذاب .

¹ ابن منظور (جمال الدين بن مكرم الأنصاري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة "لفت"

² سورة هود الآية 81

³ الزمخشري، الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 4، ص .

والموضع الثاني جاء في قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾¹ .
واللَّفَت هنا بمعنى الصَّرَف إذ أنَّ عبارة "لنلفتنا" هي بمعنى "لتصرفنا واللَّفَت والفتل أخوان
ومطاوعهما الالتفات و الانفتال"²

كما أشار ابن الأثير إلى معنى الالتفات في اللغة فقال:"وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان
عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتار كذا"³ .

ومما سبق من ايراد المعاني اللغوية للالتفات نجد أنه يدلّ على الصَّرَف واللِّي والفتل،
غير أنَّ هذا المصطلح له معان أخرى كالقبض والأكل والمزج والخلط والنظر، وقد اتخذت
هذه المعاني اللغوية وجهات شتى في البلاغة العربية، إذ اتّصلت بالجهد والقوة والسلب
والإيجاب وبلاستجابة النفسية والسلوك لإنساني، لأنّها حملت معنى الجهد والقوة والمعاناة
والمكابدة وشدة الاعتصار⁴ .

وعموماً فإنّ المادة المعجمية لمفهوم الالتفات يتمحور حول الصَّرَف والتَّحول.

2. اصطلاحاً:

الالتفات فنّ بلاغي متميّز في علم البلاغة العربيّة، ولم يتفق علماء البلاغة على تحديد
مفهومه، وقد فسّر الزركشي إشارة ابن المعتز، وهي أنّ "الالتفات: هو الانتقال والانصراف
عن معنى يكون فيه معنى آخر. أو هو تعقيب الكلام جملة مستقلة ملاقية له في المعنى
على طريق المثل أو الدّعاء"⁵ فالأول كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ
الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾⁶ الثانية كقوله تعالى :

¹ سورة يونس الآية 78

² الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص

³ ينظر ابن الأثير، المثل السائر، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي و بدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ج 2، ص13.

⁴ ينظر، مازن موفق صديق الحيرو، الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، مكتبة دار البيان، ط، 2010، 1، دمشق، سوريا، ص1

⁵ ينظر، لزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، ط، 335. 2 ، ص3، ج1973

⁶ سورة الاسراء الآية 81

﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾¹ وذكر جمهور البلاغيين أن شرط الالتفات أن يكون في جملتين أي كلامين مستقلين، وقد أشار الزمخشري إلى هذا الشرط . كما أورد فخر الدين الرّازي الالتفات ضمن أقسام النّظم عادا إياه الوجه الخامس، وذكر ذلك قائلا: "قيل إنه العدول من الغيبة إلى الخطاب، وبالعكس، فالأول قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾² والثاني قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾³ 22 . ومن أوائل العلماء الذين تناولوا مفهوم الالتفات وان لم يصرح بلفظه: أبو عبيدة (ت 210هـ) وقد أطلق على عموم مباحث البلاغة العربية تسمية المجاز، " وعدّ عملية التّحول بين أنماط الضّمائر مجازا، بقوله: "ومن المجاز ما جاءت مخاطبة الشّاهد ثم تركت وحولت إلى مخاطبة الغائب،" ومن مجاز ما جاء خبره عن الغائب ثم خطب الشّاهد⁴ كقوله تعالى: "﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأُولَى﴾"⁵ .

وتناول المبرّد (ت 285هـ) الالتفات عند تحليله لبعض الآيات القرآنية بقوله: "كانت المخاطبة للأمة ثم صرفت إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم - إخبارا عنهم⁶ وذلك في قوله تعالى "﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾"⁷ .

واعتبر المبرّد أن التّحول الحاصل بين "الضمائر" - من الغيبة إلى الخطاب أو من التّكلم إلى الغيبة- صرفا ممّا جعل البلاغيين يطلقون مصطلح الصّرف على الالتفات ويتوافق ابن المعتز (ت 296هـ) مع هذا المنحى كذلك إذ يقول عن الالتفات أنّه: "هو انصراف المتكلم من المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر⁸ . وهذا ما يدعونا إلى فهم أسلوب الالتفات إلى أنّه تحول

¹ سورة التوبة الآية 127

² [الفاتحة] 4-5 :

³ [يونس] 22 :

⁴ أبو عبيدة، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، مصر، ج 1، ص 1.

⁵ [القيامة] 33-34 :

⁶ لميرد، الكامل في اللغة العربية والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم و السيد شحاته، دار نهضة مصر للطباعة و النشر، 2003، ج 3، ص 2-23

⁷ [يونس] 22 .

⁸ ابن المعتز، كتاب البديع، انمطايوس كراتشوفسكي، دار الميسرة، ص

في اللفظ والمعنى، وخاصة حين الانتقال من المباشرة في التعبير إلى غير المباشر فيه، ويؤيد هذه الفكرة الكفوي في كتابه "الكليات" إذ يذكر أن الالتفات هو: "نقل معنوي لا لفظي فقط وكل زيادة في المبنى تستدعي زيادة أو تغييرا في المعنى. وقد تناول ابن المعتز الالتفات ضمن حديثه عن البديع فيما سماه "محاسن الكلام"، وكان الالتفات هو أول تلك المحاسن عنده بما يوفره من إيماء وإيحاء للمخاطب الذي يجب أن يكون لديه قدر من النباهة ومتابعة الكلام ليكون التواصل وفق هذا الأسلوب ممكنا.

أما قدامة بن جعفر (ت 337هـ)، فيقول عنه "ومن نعوت المعاني الالتفات، وهو أن يكون الشاعر آخذا في معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه أو يظن بأن رادا يرد عليه قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه فأما يؤكد أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه¹ ويتضمن هذا التعريف توصيفا لقيمة الالتفات إذ يذكر السكاكي في مفتاح العلوم أن "قيمة الالتفات من الناحية المعنوية وصلتها بالنفس الإنسانية، من افتراض السائل في سؤاله، وتقديم الجواب عن السؤال أو إحلال الشك مكانه² ويتفرع مفهوم الالتفات عند أبي هلال العسكري فيقسمه إلى ضربين: فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى فإذا ظننت أنه يريد أن يتجاوزَه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به ... والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذا في معنى وكأنه يعترضه شك، أو ظن³.

ويرى السكاكي (ت 626هـ) أن الالتفات يدرج ضمن علم المعاني في البلاغة العربية، إذ يقول: "واعلم أن هذا النوع أعني نقل الكلام من الحكاية إلى الغيبة لا يخص المسند إليه ولا هذا القدر، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها بنقل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملا باستدرار إصغائه،

¹ ينظر قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ت: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ص.

² ينظر: أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، ص 9.

³ أبو هلال العسكري، الصناعتين، ت، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيد بيروت، 1986، ص 39.

... وأنّ الكلام المفيد عند الإنسان يكون بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه وأطيب قرى لها¹.

وبذلك فإن عملية التّحول والانتقال بين الضّمائر في أسلوب الالتفات عند السكاكي ممّا يؤدي إلى تمكين المعنى، وتوثيق التواصل، "لأنّ الكلام عندما ينطوي على تعديل معيّن في أسلوب مخاطبته للمتلقّي يؤدّي إلى تحريك نشاط السّامع وإيقاظه² ولم يكتف السكاكي بإدراج الالتفات ضمن علم المعاني³، وإنما صنفه كذلك ضمن علم البديع، دون أن يفصل فيه القول، مردفاً بالعبارة الآتية": ومنه الالتفات وقد سبق ذكره في علم المعاني . كما تناول ابن الأثير (ت 637هـ) الالتفات في كتابه المثل السائر، من ناحية أنّه خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، و حقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام، خاصة لأنّه ينتقل منه من صيغة إلى صيغة أخرى، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض. وأسلوب الالتفات من بديع فنون البلاغة، وهو ملمح من ملامح النّظرية الأسلوبية الحديثة، وهو على المستوى الفنيّ من الظواهر التي تتحكّم في الأساليب بصيغة الحضور الفاعل والمؤثر، وكأنّ الالتفات يحقّق الاستجابة الطبيعية لنزوع الإنسان إلى التّنويع والتّجديد في أسلوب تعبيره وصيغ كلامه وحسب رأي ابن الأثير فإنّ هذه الآلية البلاغية والإبلاغية في آن واحد، تساعد على التّنويع في الخطاب باستعمال الضّمائر والأزمنة، وذلك لتحقيق التّفاعل بين المبدع والمتلقّي، وهذا الاختلاف والتّحول بين الضّمائر و الأزمنة يضع المستمع وسط الأحداث فيتفاعل معها بدلاً من شعوره بالملل من ضمير واحد، وزمن واحد، ومن ثمّ فإنّه قسّم الالتفات إلى ثلاثة أقسام:

¹ ينظر السكاكي، مفتاح العلوم، صي.

² ناظم عوده خضر، الأصول المعرفية النظرية التلقّي، دار الشروق للنشر، ص 7.

³ السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه و علق عليه نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص 202.

القسم الأول: في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه.

أما القسم الثاني: فيتمثل في الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

والقسم الثالث: في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي.

ثانياً /أسلوب الالتفات عند الطبري :

الإمام الطبري (224-310هـ) هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، صاحب جامع البيان عن تأويل آية القرآن وهو من أقدم التفسير الجامعة وأعظمها. لم يُصرِّح الطبري بمصطلح "الالتفات" في الغالب، بل كان يعبر عنه بعبارات تحليلية، كقوله: "ثم رجع إلى مخاطبة النبي" أو "عاد الخطاب إلى الغائب".

1/ أنواع الالتفات في تفسير الطبري :

يمكن استخلاص أنواع الالتفات التي وقف عندها الطبري في تفسيره على النحو الآتي :

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: كما في قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالكلام جاء على صيغة الغيبة أولاً، ثم التفت إلى الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وقد أشار الطبري إلى هذا التحول مبيناً أن فيه معنى التشريف والإقبال على المخاطب.

الالتفات من الخطاب إلى الغيبة: وهو كثير في القرآن الكريم، ويلاحظ الطبري أن هذا النوع يُستخدم عادةً لإفادة البعد أو إشعار المخاطب بأن المتحدث عنه في مقام يختلف عن مقامه الالتفات من الماضي إلى المضارع: يُشير إليه الطبري بقوله إن صيغة المضارع تُفيد الاستحضار والتجديد في الأذهان مما يجعل الأحداث الغابرة حيّةً أمام المتلقي .

2/ الغرض البلاغي عند الطبري :

يربط الطبري الالتفات في الغالب بالسياق التفسيري، فيستنبط منه الحكم التشريعية والأغراض الدلالية. ولم يتناوله بوصفه ظاهرة بلاغية مستقلة، بل جعله أداة لخدمة المعنى وتوجيه التأويل. ومن أبرز ما وقف عنده: تعظيم المقام، والتشريف، والتنبيه، وزيادة التأثير في النفوس.

ثالثاً /أسلوب الالتفات عند الإمام ابن كثير:

1- منهجه في تناول الالتفات:

الإمام ابن كثير (701-774هـ) هو إسماعيل بن عمر الدمشقي، صاحب تفسير القرآن العظيم، وهو تفسير بالمأثور يُعنى بتجميع الروايات وتوظيفها في الكشف عن المعاني. ويتناول ابن كثير الالتفات بأسلوب أكثر بلاغية مقارنة بالطبري، إذ يُصرّح أحياناً بالمصطلح، ويبيّن أثره في تجويد المعنى وتحسينه.

2- أنواع الالتفات في تفسير ابن كثير:

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: يُبرز ابن كثير هذا النوع في سورة الفاتحة، ويُشير إلى أنّ الانتقال المفاجئ من الغيبة إلى الخطاب المباشر يحدث في نفس القارئ نقلةً من التأمل إلى المناجاة، وفيه تعظيم لقدر المخاطب.

الالتفات من ضمير الجمع إلى المفرد: يُنبّه ابن كثير إلى أنّ هذا النوع يُفيد التخصيص والعناية بفرد دون آخر، وهو أسلوب قرآني بليغ يُولّد التوكيد.

الالتفات الزمني (من الماضي إلى المضارع): ويُشير إليه ابن كثير في مواضع عدّة، مُبيّناً أنّ العرب كانت تعتمد إلى هذا الأسلوب لاستحضار الحدث وتحريك الانفعال.

3/ الغرض البلاغي عند ابن كثير:

يذهب ابن كثير إلى أنّ الالتفات يُحقّق جملةً من الأغراض البلاغية الجليّة، أبرزها: تجديد نشاط المخاطب، والتّوبيه بشأن المُتحوّل إليه، وإيجاد التّشويق والإثارة في الأسلوب. وهو في ذلك يجمع بين البُعد التفسيرى الأثرى والدّوق البيانى.

رابعا /الالتفات في سورة المرسلات :

تزخر سورة المرسلات بظاهرة الالتفات التي تتجلى في مواضع عديدة، وكلُّ منها يحمل دلالة خاصّة تُعمّق المعنى وتُثري الأثر الجمالي :

الالتفات في مطلع السورة:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا... إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾¹

يلتفت الخطاب في الآيات الأولى من ذكر الأشياء المُقسّم بها بأسلوب الغيبة إلى مخاطبة المستمعين مباشرةً بضمير الجمع في ﴿تُوعَدُونَ﴾، وفي هذا الالتفات المفاجئ إيدانٌ بأنّ كلّ تلك القوى الكونية مُسَخَّرة لإثبات ما يُوعَد به الإنسان من بعث وحساب.

الموضع الثاني: التحوّل إلى ضمير المتكلمين:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾² . انتقلت الآيات إلى التّكلم بنون العظمة ﴿نَجْعَلِ - جَعَلْنَا - أَسْقَيْنَاكُم﴾، ممّا يُضفي على الخطاب مباشرةً وحميميةً، ويجعل المتلقّي يستشعر أنّ النّعم تنزل عليه مباشرةً من الله الواحد القادر.

الموضع الثالث: الالتفات إلى الأمر في مشاهد العذاب:

¹ سورة المرسلات، الآيات 7-1

² ، سورة المرسلات الآيات 25-27

﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾¹

يتحوّل الخطاب فجأةً إلى أمر مباشر موجّه للمكذّبين ﴿انطَلِقُوا﴾، وفي هذا الالتفات إلى صيغة الأمر دلالةً على الإهانة والإذلال، والانتقال المفاجئ في الأسلوب يُعبّر عن عنف المشهد وقسوته.

وخلاصة القول إن الالتفات في سورة المرسلات آلية دلالية تُحقّق التنوع والحيوية في الخطاب، وتُشرك المتلقّي مشاركةً فعليةً في مشاهد الآخرة وأهوالها.

المبحث الثاني : الحذف :

أولاً: تعريف الحذف:

تمهيد :

تشتهر اللغة العربيّة بمجموعة كبيرة من الظواهر اللّغوية التي شاعت وانتشرت في نصوصها، واتّخذها النّحويون واللّغويون أداةً للتحليل اللّغوي، وسبر أغوار اللّغة، وتدقيق النّصوص المختلفة، ومن هذه الظواهر: الحذف، والزيادة، والتّقديم والتّأخير، والفصل،

¹¹ السورة المرسلات (الآيتان 30-29)

والاعتراض وغير ذلك، ولعلّ الحذف هو أشهر هذه الظواهر اللغوية وأكثرها انتشاراً في النصوص.

1- لغة :

والحذف في اللغة مأخوذ من مادة (ح ذ ف)، وقد جاء في معاجم اللغة ما يدلّ على معنى الإسقاط والقطع؛ فقد جاء في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: "قَطَفُ الشَّيْءِ مِنَ الطَّرَفِ كَمَا يُحْدَفُ طَرَفُ ذَنْبِ الشَّاةِ"¹

كما جاء في (لسان العرب) لابن منظور: "حذف الشيء: إسقاطه، ومنه حذفُ من شعري، ومن ذنب الدابة؛ أي أخذتُ منه"².

وعليه فالحذف في أصل اللغة يدور حول معاني: الإسقاط، والإزالة، والقطع من الطرف؛ وهو ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى الاصطلاحي في علوم البلاغة والنحو.

2- اصطلاحاً :

يرتبط الحذف في الاصطلاح بمعناه اللغوي ارتباطاً وثيقاً، فهو إسقاط شيء من الكلام بقصد أو لداعٍ بلاغي. وقد تعددت تعريفاته عند العلماء: فيعرّفه الزركشي في البرهان بأنّه: "إسقاط جزء من الكلام، أو كلّ دليل أو قرينة"³، وجاء تعريفه في معجم المصطلحات بأنّه: "إسقاط كلمة من بناء الجملة، وقد تكون هذه الكلمة ركناً من أركانها؛ كالمبتدأ أو الخبر أو الفاعل، وقد تكون حرفاً، وقد تحذف الجملة"⁴، كما يعرفه أحد الباحثين المعاصرين بأنّه:

¹ ينظر : الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ترتيب وتحقيق: د. عبد الحميد هندائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م، ج1، ص297.

² ينظر :ابن منظور لسان العرب، اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، مادة (ح ذ ف).

³ ينظر :بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط3، 1400هـ/1980م، ج3، ص102.

⁴ ينظر : د. محمد إبراهيم عبادة، معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2001م، ص85.

"إسقاط لصيغ داخل النص التركيبي في بعض المواقف اللغوية، وهذه الصيغ يفترض وجودها نحويًا لسلامة التراكيب وتطبيقًا للقواعد¹." والحذف خلاف الأصل²

وهو الصورة المقابلة للزيادة، وكلاهما يُعدُّ عدولًا عن النمط المعياري للجملة؛ وذلك لأنَّ الحذف "ظاهرة في اللغة لا تقل أهمية عن الذكر، وكما أنَّ التصريح باللفظ في التراكيب أمر يقتضيه السياق والتراكيب، فإنَّ الحذف أيضًا ظاهرة لا تقلُّ في أهميتها عن اللفظ المذكور، وتقديره أمر يعود إلى السياق، والمذكور هو الذي يفسر المحذوف ويشير إليه"³.

ثانيا. أسلوب الحذف في البلاغة العربية :

اهتمَّ علماء البلاغة العربية اهتمامًا بالغًا بأسلوب الحذف، وعدُّوه من أرفع أساليب الإيجاز وأبلغها أثرًا في النفس؛ إذ "الحذف من عجائب اللسان العربيّ وأسراره التي تفرَّد بها عن غيره من الألسن، فليس الحذف في العربية لمجرد الاختصار والإهمال، بل هو من شروط الفصاحة"، وقد أشار إلى ذلك ابن سنان الخفاجي بقوله: "ومن شروط الفصاحة والبلاغة: الإيجاز والاختصار، وحذف فضول الكلام".

أ) الحذف عند ابن جنّي وابن قتيبة والجاحظ :

ذكر ابن جنّي الحذف في أوّل الأنواع التي تحدّث عنها في باب المعنون بـ"باب الشجاعة العربية"، مُشيرًا إلى أنَّ العرب تجترئ على الحذف اجتراءً يدل على النّفة بالمتلقّي وحدة الإِفهام. وذكره ابن قتيبة بقوله: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه"، وعدَّ الحذف والإيجاز من أبرز هذه المجازات. أمّا الجاحظ فقد جمع في حديثه بين الحذف والإيجاز من ناحية، والإطناب من ناحية أخرى، مبينًا أنَّ كليهما من أساليب الفصحاء،

¹ ينظر : د. علي أبو المكارم، الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2008م، ص200.

² الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص104.

³ ينظر : د. فايز أحمد محمد الكومي، ظاهرة الحذف والذكر، مجلة علوم اللغة، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، 2010م.

يقول: "ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخْرَجَ الإشارة والوحيّ والحذف".

ب) الحذف عند عبد القاهر الجرجاني:

تُعدُّ آراء عبد القاهر الجرجاني في أسلوب الحذف من أنضج ما كُتب في هذا الشأن، فقد أفاض في الحديث عنه في كتابه القيم (دلائل الإعجاز)، وأوضح أن الحذف ليس إهمالاً بل هو إبداع؛ إذ يقول: "فإنك ترى بترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذب أنطق ما تكون إذا لم تتطرق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبين".¹

وهكذا أرسى الجرجاني قاعدة ذهبية مفادها أنَّ الحذف قد يكون أبلغ وأفصح وأجمل من الذكر، إذا توافرت له قرينة تدلّ عليه، ووقع في موضعه اللائق .

ج) شروط الحذف البلاغي وأمثلة من الأدب العربي:

اشتراط العلماء لصحة الحذف وحسنه شرطاً أساسياً هو: وجود قرينة تدلّ على المحذوف، سواء أكانت قرينة لفظية أم معنوية أم حالية، دون هذه القرينة يكون الحذف لغواً لا بلاغة فيه. وقد ضرب العلماء لذلك أمثلة كثيرة من فصيح الكلام:

مثال 1: من الشعر الجاهلي — المتنبي

وَقَفْتُ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

حُذِفَ جواب "كأنك في جفن الردى" المتضمن معنى الجرأة والشجاعة، وفي هذا الحذف إحياء يتركه الشاعر للمتلقى يكمله بخياله، ممّا يجعل الصورة أعمق أثراً.

مثال 2: من شعر امرئ القيس

﴿قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ﴾ (امرؤ القيس، المعلقة)

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ/1992م، ص146

حُذِفَ مفعول "نبكِ" والتقدير: قفا نبكِ دموعنا، أو نبكِ بكاءً، وفي الحذف دلالة على أن البكاء يفوق الوصف فلا يُعبّر عنه.

مثال 3: من النثر العربي

قولهم في التهنة: "بالرفاء والبنين"؛ حُذِفَ الفعل والتقدير: هنأك الله أو زواج بالرفاء والبنين، وهذا من الإيجاز البديع الذي يُكثّف المعنى في أقل الألفاظ.

ثالثاً: أسلوب الحذف في القرآن الكريم:

القرآن الكريم كلام الله المعجز الذي جاء بأرقى أساليب العربية، وقد تجلّت فيه ظاهرة الحذف تجلياً بارزاً بوصفها من أسرار إعجازه البياني، وقد أولاه علماء التفسير والبلاغة عناية فائقة، ممّا يدلّ على أنّ الحذف في القرآن الكريم لا يقع عبثاً، بل هو دائماً لغرض بلاغي عالٍ يقتضيه السياق.

أ) أنواع الحذف في القرآن الكريم:

1) حذف المبتدأ أو الخبر:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾¹

¹ سورة الإخلاص، الآية 1.

يرى جمهور المفسرين أنّ (هو) ضمير شأن، والجملة بعده في محل رفع خبر، وقيل: حُذف الخبر والتقدير: قل هو الله أحد [ربنا وخالقنا]، وفي الحذف إشارة إلى أنّ وحدانيته لا تحتاج توصيفاً إضافياً.

(2) حذف جواب القسم

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝¹﴾

حُذف جواب القسم وقُدِّر: إنّ العذاب لواقع على أهل الأخدود، وفي هذا الحذف تهويلٌ بالغ إذ يوحي بأنّ الجواب أعظم من أن يُصرَّح به.

(3) حذف المفعول به:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ²﴾

حُذف مفعول (قَلَى) والتقدير: وما قلاك، وفي هذا الحذف عناية بلاغية بالغة؛ لأنّ ذكر المفعول كان سيقيّد المعنى، أمّا الحذف فأفاد التعميم والشّمول نفي القلى من كلّ وجه وفي كل زمان.

(4) حذف الفاعل (بناء الفعل للمجهول)

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ³﴾.

حُذف الفاعل الحقيقي وهو الله تعالى؛ تعظيماً له وإشارةً إلى أنّ الخالق لا يحتاج إلى تنصيص، وتوجيهاً للانتباه نحو المخلوق وصفته.

(5) حذف جملة الجواب :

¹ سورة البروج الآيتان 2-1

² سورة الضحى الآية 3.

³ سورة الأنبياء ، الآية 37.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾¹.

حُذِفَ جواب (لو) الشرطية، والتقدير: لكان هذا القرآن، وفي هذا الحذف تعظيم شأن القرآن إذ يوحي بأنَّ الجواب أعلى من كل ما يُقال.

رابعاً: أسلوب الحذف عند الإمام الطبري

الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ) إمامٌ من أئمة التفسير والفقه واللغة، وتفسيره "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" من أجمع كتب التفسير وأوسعها، وقد أولى فيه ظاهرة الحذف عناية خاصة، إذ كان يتتبع المحذوف في التراكيب القرآنية ويُقدِّره من حيث توجيهه النحوي والبلاغي.

أ) منهج الطبري في التعامل مع الحذف :

اعتمد الطبري في التعامل مع الحذف على جملة من الأسس:

- 1 - الاحتجاج بكلام العرب وأشعارها على صحة الحذف وجوازه.
- 2 - التقدير النحوي للمحذوف مع بيان وجوهه المختلفة عند تعددها.
- 3 - استحضار السياق القرآني للترجيح بين الأوجه الإعرابية.
- 4 - الرِّبْط بين الحذف والغرض البلاغي من التركيب.

ب) أمثلة من تفسير الطبري على أسلوب الحذف

المثال الأول: حذف جواب القسم في سورة المرسلات:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾²

¹ القرآن الكريم، سورة الرعد ، الآية 31.

² سورة المرسلات (77)، الآيتان 1-2

قال الطبري في تفسير هذه الآيات: إن هذه الواو في "المرسلات" واو قسم، وجواب القسم محذوف، وتقديره: إنَّ ما تُوعدون لواقع، أو إنَّ العذاب لحق، وقد استشهد لذلك بأساليب العرب في حذف جواب القسم إذا كان المقام مقام تهويل وتعظيم.¹

المثال الثاني: حذف المضاف في قوله تعالى ﴿وَسَلِّ الْقُرْيَةَ﴾²

وقف الطبري عند هذه الآية وقفة مستفيضة، وبيَّن أنَّ "القرية" هنا أريد بها أهلها، فحذف المضاف (أهل) وأقيم المضاف إليه مقامه، وهذا ضرب من ضروب الإيجاز المشهور في كلام العرب حيث يُذكر الكل ويُراد الجزء أو العكس. ثمَّ نقل أقوال السلف في ذلك محتجاً بأنَّ هذا الاستعمال جارٍ على أساليب العرب المعروفة.³

خامساً: أسلوب الحذف عند الحافظ ابن كثير:

الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت 774هـ) إمامٌ من أئمة التفسير والحديث والتاريخ، وتفسيره "تفسير القرآن العظيم" من أشهر كتب التفسير بالمأثور وأوثقها. وقد اعتنى بظاهرة الحذف وأشار إليها في مواضع متعددة.

أ) منهج ابن كثير في التعامل مع الحذف:

يتميز ابن كثير بأنه يُحسن الانتقاء من أقوال السلف، ويُرجِّح بينها اعتماداً على السياق القرآني والأثر النبوي، وقد سلك في بيان الحذف مسلكاً يجمع بين:

1 — الإحالة إلى الأحاديث النبوية الشريفة لتوضيح المحذوف.

2 — الاستشهاد بأقوال السلف من الصحابة والتابعين في تأويل المحذوف.

¹ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م

ج24، ص10-8

² سورة يوسف (12)، الآية 82

³ لطبري، جامع البيان، ج16، ص158

3 - البيان الموجز للوجه النحوي دون إطالة في المسائل الإعرابية.

(ب) أمثلة من تفسير ابن كثير على أسلوب الحذف:

المثال الأول: حذف الفاعل في أفعال القيامة:

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿٣﴾ ﴾¹

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات: إن هذه الأفعال مبنية للمجهول، والفاعل محذوف، والمراد: أن الله تبارك وتعالى يفعل ذلك كله بقدرته، وحذف اسمه لظهور المراد ودلالة السياق عليه، كما أن في ذلك تعظيماً لشأن هذه الأحداث بتوجيه النظر إليها لا إلى فاعلها المعلوم.²

المثال الثاني: حذف جواب الشرط ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾³

أوضح ابن كثير أن هذه الجملة التحذيرية المتكررة في السورة تتضمن حذفاً للمسبب، وهو العذاب المنتظر؛ إذ التقدير: ويلٌ لهم من عذاب الله يومئذ، وفي تكرارها مع الحذف تقييد مستمر وتهديد متجدد يزداد وقعه كلما تليت.⁴

سادساً: حالات الحذف في سورة المرسلات :

الموضع الأول: حذف جواب القسم :

¹ القرآن الكريم، سورة المرسلات الآيات 8-10.

² ينظر ، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ/1999م، ج8، ص295-296.

³ سورة المرسلات الآية 15.

⁴ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص297.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝ فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا ۝ فَالْمُفْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾¹.

التحليل: تشتمل الآيات الخمس الأولى على قسم متعدد بأشياء متعاطفة، وجواب هذا القسم محذوف. وقد اختلف المفسرون في تقديره على أقوال، أشهرها:

— قدره جمهور المفسرين: "إِنَّ مَا تُوعِدُونَ لَوَاقِعٌ" استئناساً بما ورد في السورة نفسها.

— قدره بعضهم: "إِنَّ الْعَذَابَ لِحَقٌّ"، وهو الجواب المعنوي المستفاد من السياق.

الدلالة البلاغية: في حذف جواب القسم هنا تهويلٌ شديد وتعظيم بالغ؛ لأنَّ الأمر المُقسَم عليه من الهول والعظمة بحيث لا يسعه التصريح، فتركه أبلغ في النفوس من ذكره. يقول الزمخشري: "إِنَّ المعنى مهياً في نفس المتلقي من تضاعف القسم فيصير جوابه مضمراً في القلب قبل اللسان".²

الموضع الثاني: حذف الفاعل ببناء الفعل للمجهول :

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾³

التحليل: بُنيت الأفعال الثلاثة (طُمِسَتْ، فُرِجَتْ، نُسِفَتْ) للمجهول، فحذف الفاعل الحقيقي — وهو الله تعالى — في كل فعل منها.

الدلالة البلاغية: حذف الفاعل هنا يؤدي وظيفتين متكاملتين:

1 — التَّعْظِيم: المُحْدِثُ معلوم لا يحتاج تنصيصاً، وذكره سيُصَغَّرُ من هيبة الموقف.

¹ سورة المرسلات الآيات 5-1

² ينظر ، أبو القاسم الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، ج4، ص674

³ سورة المرسلات الآيات 8-10

2 - التّركيز: توجيه الانتباه إلى هول الأحداث ذاتها وآثارها المرعبة لا إلى إسنادها.

قال الطبري: "وفي بناء الفعل للمجهول إشارة إلى أنّ هذه الأمور تقع لا محالة، وقدرة الله تعالى فيها ظاهرة لا تحتاج إلى تأكيد بالذكر".¹

الموضع الثالث: حذف المضاف :

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتُ﴾².

التّحليل: الأصل في التّركيب: "وإذا أوقات الرّسل أقنّت"، أي: جُمعت لوقت معلوم، فحذف المضاف (أوقات) وأُقيم المضاف إليه (الرّسل) مقامه، وهذا ما يُسمّى بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

الدلالة البلاغية: في هذا الحذف إيجازٌ بليغ يُحقّق الاقتصاد اللّغوي، مع تكثيف دلالي عالٍ؛ إذ يُبرز الرّسل أنفسهم لا مجرد أوقاتهم، ممّا يجعل المشهد أكثر حضوراً وتجسيّداً.

قال ابن كثير: "أي: جُمعوا لوقتهم الذي وُعدوا به، وهو يوم القيامة"،³

وقال الطبري: "أقنّت: أي أجّلت وجمعت للوقت الذي ضرب لها".⁴

الموضع الرابع: حذف الخبر في أسلوب التّهويل :

﴿لَا يَوْمٌ أَجَلَتْ ○ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾⁵

¹ الطبري، جامع البيان، ج24، ص11

² سورة المرسلات الآية 11.

³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص293

⁴ الطبري، جامع البيان، ج24، ص14

⁵ ، سورة المرسلات الآيات 14-12

التحليل: تتضمن هذه الآيات أسلوب الاستفهام التعظيمي ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، وفيه حذف للخبر؛ إذ التقدير: وما أدراك ما يوم الفصل [من الهول والعظمة]، وفي ترك الجواب وعدم التصريح به إيكالٌ للمتلقى ليُكمِّله بخياله.

الدلالة البلاغية: كلما جاء الاستفهام ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ في القرآن دون جواب تصريحى فإنه يُشير إلى أن الجواب يفوق الوصف ويتجاوز المدرك، وهذا من أعمق صور التَّهْوِيل البلاغي في القرآن الكريم.¹

الموضع الخامس: حذف المبتدأ في جملة الوعيد المتكررة :

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾².

التحليل: جاءت هذه الجملة مبتورة من مبتدئها، وأصل التركيب: "عذابٌ وويلٌ يومئذٍ"، أو: "لهم وويلٌ يومئذٍ"، فحذف المبتدأ اكتفاءً بالخبر الذي يحمل ثقل المعنى.

الدلالة البلاغية: هذه الجملة التحذيرية تتكرر في السورة عشر مرات، والحذف فيها يُسهم في تعظيم الوعيد وتكثيفه؛ إذ في ذكر (الويل) وحده دون تفصيل تهديدٌ أشدّ وطأة من كلّ تفصيل. والتكرار مع الحذف يحدث أثراً تراكمياً يجعل المتلقى يستشعر خطورة التكذيب في كل مرة من جديد.³

الموضع السادس: حذف الجواب بعد أسلوب الاستفهام الإنكاري :

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ○ ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ﴾⁴

¹ ينظر ، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص675؛ والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج5، ص267

² ، سورة المرسلات الآية 15 وتكرارها في الآيات 19 :، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49

³ ينظر ، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص297؛ والطبري، جامع البيان، ج24، ص16

⁴ سورة المرسلات (الآيتان 17-16)

التحليل: الاستفهام في ﴿أَلَمْ نُهْلِكْ﴾ استفهام إنكاري تقريرى، وجوابه محذوف؛ والتقدير: بلى أهلكناهم، فحذف الجواب لأن السياق يجعله واضحاً لا يحتاج تصريحاً، والغرض من الاستفهام أصلاً ليس الاستفهام بل التذكير والتقرير.

الدلالة البلاغية: في الحذف هنا إيجازٌ يُسرّع في تناول الدليل على القدرة الإلهية؛ فبدلاً من الوقوف عند الجواب ينطلق النص إلى التأكيد التالى في الآية الثانية، ممّا يُشعر المتلقّي بتواتر شواهد القدرة الربانية وتتابعها.

الموضع السابع: حذف المعطوف عليه في ذكر المكذّبين:

﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾¹.

التحليل: الإشارة في ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى ما تقدّم من إهلاك الأولين والآخرين، وقد حُذف تفصيل الفعل المشار إليه لدلالة السياق عليه، والتقدير: كما أهلكنا أولئك كذلك نفعل بكل مجرم. الدلالة البلاغية: الإشارة المجملة مع الحذف أبلغ من التفصيل؛ لأنّ القارئ يُشغِل ذهنه في استحضار ما مرّ به من مشاهد الدمار والإهلاك، فيكون الوعيد أشمل وأعمق أثراً.

الموضع الثامن: حذف المفعول في قوله تعالى :

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾².

التحليل: حُذف مفعول الفعلين "كُلُوا واشربوا"، والتقدير: كُلُوا ما شئتم واشربوا ما لذّ وطاب، وفي الحذف إحياء بسعة النعيم وتنوّعه ممّا لا يُحصى ولا يُحدّد.

¹ سورة المرسلات ، الآية 18

² سورة المرسلات الآية 43

الدلالة البلاغية: في إطلاق الفعل وعدم تقييده بمفعول بعينه دلالة على الإباحة التامة والنّعيم غير المحدود؛ لأنّ ذكر المفعول سيُضيّق المعنى ويُقيّد الصّورة، أمّا حذفه فيجعل النّعيم مفتوحاً على الكمال والاتّساع.¹

المبحث الثالث: أسلوب التقديم والتأخير:

أولاً: تعريف التقديم والتأخير

1. لغة:

التقديم والتأخير مصطلح مركّب من كلمتين: (التقديم) و (التأخير)، وكلّ منهما مصدر لفعله. فالتقديم مصدر قدّم يُقدّم، وهو لغة: جعل الشّيء أمام غيره، يقول ابن فارس في مقاييس اللغة: "القاف والدال والميم أصلٌ صحيح يدلّ على تقدّم الشّيء وسبقه".²

والتأخير مصدر أخر يؤخّر، وهو لغة: ضدّ التقديم، أي جعل الشّيء خلف غيره، قال في لسان العرب: "أخّره: جعله في آخره، والتأخير نقيض التقديم".³

وبذلك يكون التقديم والتأخير في اللغة قائماً على فكرة السّبق والتأخر في التّرتيب المكاني أو الزّمني أو الرّتبي، وهو ما أخذه علماء النّحو والبلاغة وطوّعوه لخدمة الدّراسة اللّغوية.

2. اصطلاحاً

عرّف علماء النّحو والبلاغة التقديم والتأخير بتعريفات متقاربة، فيعرّفه ابن الأثير في المثل السائر بأنّه: "تقديم اللفظ على موضعه الأصلي من الكلام لغرض بلاغي يقتضيه السّياق".⁴

¹ ينظر ، الزمخشري، الكشاف، ج4، ص679

² ينظر ، أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م، ج5، ص75.

³ ينظر ، ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، مادة (أخر).

⁴ ينظر ،ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ج2، ص109.

وقد أفرد له عبد القاهر الجرجاني باباً مستقلاً في (دلائل الإعجاز)، وعده من أجل أبواب البلاغة وأدقها، قائلاً: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة".¹

وفي المصطلح البلاغي الحديث يُعرّف بأنه: "تحويل ترتيب أجزاء الجملة عن مواضعها الأصلية المقررة في النحو، بتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، لأغراض بلاغية تعبيرية".²

ثانياً: أسلوب التقديم والتأخير في البلاغة العربية:

يُعدُّ التقديم والتأخير من أوسع أبواب علم المعاني وأغناها، وقد أجمع البلاغيون على أنه لا يُصار إليه إلا لغرض بلاغي، وأبرز هذه الأغراض:

أ) التخصيص والحصص:

وهو أشهر أغراض التقديم؛ إذ يُفيد تقديم المعمول على عامله تخصيص المقدم وحصص الفعل فيه دون سواه، ومن أبرز أمثله من القرآن الكريم:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾³

قدّم المفعول به ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل ﴿نَعْبُدُ﴾ لإفادة التخصيص، أي: نخصُّك وحدك بالعبادة لا نشرك معك أحداً، ولو قيل "نعبدك" لفات هذا المعنى الدقيق.⁴

¹ ينظر، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ/1992م، ص106.

² ينظر، د. عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ص195.

³ سورة الفاتحة الآية 5.

⁴ ينظر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، ج1، ص10-11.

ب) الاهتمام والتعظيم :

يُقَدِّم ما يُراد تعظيمه أو الاهتمام به، إشعاراً بأنه أولى بالعناية. ومن شواهد في الشعر العربي قول المتنبي:

﴿ أَيَّامُهُ أَعْيَادُنَا وَلَيَالِيهِ كَالنَّهَارِ ﴾ (المتنبي، الديوان)

قَدِّم (أيامه) لأنها أجل ما يُستهلُّ به المدح، وهذا التقديم يكشف عن مدى اهتمام الشاعر بممدوحه.

ج) التشويق والإبهام:

يُقَدِّم بعض الكلام لإثارة فضول المتلقي وشوقه إلى ما يأتي بعده، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾¹.

قُدِّمَت الجار والمجرور ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ على متعلِّقها لإثارة الاهتمام بالنعمة وتعظيمها قبل الأمر بالتَّحديث.

ثالثاً: أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم

جاء أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم في أرقى صورهِ وأدقِّها، وقد أولاه المفسِّرون عناية خاصة، ومن أبرز أنواعه القرآنية:

1) تقديم الخبر على المبتدأ:

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾²

قُدِّمَ الخبر ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ للدلالة على الحصر والاختصاص؛ أي أن الملك لله وحده لا لغيره، وهذا التقديم يؤدي معنى التوحيد بصورة أبلغ ممَّا لو أُخِّر.

¹ سورة الضحى ، الآية 11.

² سورة البقرة الآية 284.

2) تقديم المفعول به على الفاعل:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾¹

قُدِّمَ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ على ﴿رَبُّهُ﴾ مع أنه مفعول به، لإبراز مكانة إبراهيم عليه السَّلام وجعله في بؤرة الاهتمام، وهذا من دقائق التعبير القرآني.²

رابعاً: أسلوب التقديم والتأخير عند الإمام الطبري وابن كثير:

أ) عند الإمام الطَّبري:

اعتنى الإمام الطَّبري اعتناءً بالغاً بأسلوب التقديم والتأخير في تفسيره (جامع البيان)، وكان يُنبِّه إليه كلما اقتضاه التركيب، مستشهداً بكلام العرب وأشعارهم، ومبيِّناً الغرض البلاغي من كل موضع.

ومن أبرز نماذجه: عند تفسيره قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾³

أوضح الطبري أن تقديم المنادى ﴿رَبَّنَا﴾ على فعل الطلب فيه إقرارٌ بالربوبية قبل الشروع في الدعاء، وهو أدبٌ في التوجُّه إلى الله تعالى، قال: "قَدِّمَ النِّدَاءَ على الدَّعَاءِ تعظيماً لله وتوسُّلاً بربوبيته قبل سؤاله".⁴

¹ سورة البقرة الآية 124.

² انظر، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، ج2، ص495.

³ سورة إبراهيم، الآية 40.

⁴ ينظر، الطبري، جامع البيان، ج16، ص550.

ب) عند الحافظ ابن كثير:

أولى ابن كثير في تفسيره (تفسير القرآن العظيم) عنايةً لافتة لظاهرة التقديم والتأخير، وربطها دائماً بالمعنى العقائدي والبلاغي في آنٍ واحد.

ومن أبرز شواهد تفسيره قوله تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾¹.

قال ابن كثير: "قَدَّمَ الجار والمجرور ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على متعلِّقه ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾ للدلالة على الاختصاص والحصر؛ أي اجعلوا توكلكم على الله وحده لا على غيره، وهذا التقديم هو الذي يُقرّر معنى الإيمان الصحيح".²

خامساً: أسلوب التقديم والتأخير في سورة المرسلات:

تزخر سورة المرسلات بنماذج بليغة من أسلوب التقديم والتأخير، يمكن إجمالها في المواضع الآتية:

الموضع الأول: تقديم الظرف الزماني:

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾³

قَدَّمَ الظرف ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ﴾ على فعله، والاستفهام الذي يتصدر الجملة يُحقّق التشويق والتّهويل. وتقديم الزمن الرّهيب يجعله المحور الذي يدور حوله كل شيء.

الموضع الثاني: تقديم القسم المطوّل على المُقسَم عليه:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا... إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ﴾¹:

¹ ، سورة المائدة الآية 23.

² ينظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2، 1420هـ/1999م، ج3، ص78.

³ سورة المرسلات: 11-13.

يُشكّل تقديم القسم المطوّل على المُقسّم عليه ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ أسلوباً بلاغياً رفيعاً؛ إذ يجعل المتلقي يمرّ بمسيرة من الصّور الكونية المهيبة قبل أن يصل إلى الحكم المقطوع به.

الموضع الثالث: تقديم شواهد القدرة على دعوى البعث:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ * وَيَلُكُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾²

قُدّمت شواهد القدرة الإلهية على وعيد المكذبين، ليكون الوعيد مبنياً على حجة دامغة. وفي هذا الترتيب المنطقي إقناعٌ عقلي مُحكم.

الموضع الرابع: تقديم المجرور الدال على الاختصاص:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاحٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾³.

تقديم ﴿فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ يفيد الاختصاص والحصر، أي أنّ هذا النعيم قسمةٌ خاصة بالمتّقين دون سواهم.

الموضع الخامس: تقديم شبه الجملة على عاملها:

﴿وَيَلُكُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾⁴.

قُدّم الظرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على متعلّقه ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ففي هذا التّقديم إبرازٌ لهول ذلك اليوم وجعله في صدارة التّحذير قبل بيان المخاطب به، ممّا يجعل وقع الوعيد أشدّ وأعمق في النّفس.⁵

الموضع السادس: تقديم المفعول به إفادةً للحصر:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ○ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾¹

¹ سورة المرسلات: 1-7.

² سورة المرسلات: 25-28.

³ سورة المرسلات: 41-42.

⁴ سورة المرسلات الآية 15.

⁵ انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4، ص675.

قُدِّمَ ذكر الأرض على وصفها ومحتواها، وفي هذا التقديم تركيزٌ على المظروف (الأرض) قبل بيان ما تحتوي، مما يوجّه ذهن المتلقي إلى التأمل في هذه النعمة الكبرى قبل تفصيلها.²

الموضع السابع: تقديم المسند إليه لإفادة التعظيم:

﴿انطَلِفُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾³.

قُدِّمَت الجار والمجرور ﴿بِهِ﴾ على الفعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ في الجملة الصلّة، وفي هذا التقديم إشارة إلى أن ما كذبوا به هو بعينه ما يُساقون إليه الآن، ففيه إثباتٌ للعدل الإلهي وتوكيدٌ لمبدأ المجازاة.⁴

يتجلّى مما سبق أن أسلوب التقديم والتأخير من أرقى الأساليب البلاغية التي وظّفها القرآن الكريم توظيفاً بديعاً؛ فهو لا يقع عبثاً، بل في كل موضع منه غرضٌ بلاغي دقيق: تخصيص، أو تعظيم، أو حصر، أو تشويق. وقد كشف الإمامان الطبري وابن كثير عن هذه الأسرار بعقليهما الفقهيين وحسّهما اللغوي الرفيع، مما يجعل القرآن الكريم معيّنًا لا ينضب لدارسي البلاغة عبر الأجيال.

ومما تقدم ذكره نخلص من خلال رصد الأبعاد الدلالية لسورة المرسلات، إلى جملة

من النتائج نجملها في الآتي:

¹ ، سورة المرسلات الآيتان 25-26.

² ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص299.

³ سورة المرسلات الآية 29.

⁴ الطبري، جامع البيان، ج24، ص22؛ والزمخشري، الكشاف، ج4، ص677.

إن الانزياح التركيبي في سورة المرسلات ظاهرة أسلوبية متجذرة في بنية الخطاب القرآني، تتجلى في ثلاث آليات رئيسية هي الالتفات والحذف والتقديم والتأخير، وكل منها يؤدي وظيفة دلالية وجمالية لا تقوم بغيره.

فالالتفات بوصفه تحولاً في الضمائر والأساليب لا يقع في السورة اعتباطاً، بل يُحقق انتقالاً مقصوداً بين مشاهد الكون وأهوال الآخرة، يُشرك المتلقي مشاركة فعلية في الخطاب، ويجدد نشاطه الذهني ويوقظ إصغاءه. أما الحذف فقد جاء في السورة على صور متعددة، من حذف جواب القسم إلى حذف الفاعل والمضاف والمفعول، وفي كل موضع منه تهويل وتكثيف دلالي يفوق ما كان سيُحقّقه الذكر الصريح، إذ أن الصمت البلاغي في القرآن الكريم أبلغ أحياناً من أفصح البيان.

وأما التقديم والتأخير فقد كشف عن بُعد توكيدي عميق، إذ لا يتقدم لفظ في السورة إلا لغرض يقتضيه السياق من تخصيص أو تعظيم أو حصر، والأبرز في ذلك تقديم الوعيد الزمني قبل المُهدّد به، مما يجعل وقع التحذير أشدّ نفاذاً إلى النفس.

وقد أسهم الإمامان الطبري وابن كثير في الكشف عن هذه الأسرار البلاغية بمنهجهما التفسيريين، فربطاً هذه الظواهر الأسلوبية بالمقاصد الشرعية والدلالات العقائدية، مما يؤكد أن الإعجاز البياني للقرآن الكريم لا يُستنفد، وأن سورة المرسلات بخاصة تُمثل ميداناً خصباً لدراسة الأسلوبية القرآنية.

خاتمة

بعد هذه الرحلة المعرفية المتأنية في أعماق سورة المرسلات و سورة القيامة والوعيد، ورصد مظاهر الانزياح اللغوي بمستوياته الصوتي والتركيب، واستجلاء ما تُفرزه من أبعاد دلالية عميقة؛ يستطيع الباحث أن يجمع خيوط هذا البحث في جملة من النتائج والتوصيات التي يأمل أن تُضيف لبنة في صرح الدراسات القرآنية اللسانية الأسلوبية.

وقد وقفت على جملة من النتائج نجملها كالآتي :

- ثبت من خلال هذه الدراسة أنّ مفهوم الانزياح ليس وافداً غريباً طارئاً على الفكر العربي، بل إنّ جذوره ضاربة في التراث النقدي العربي القديم؛ فالجرجاني في (دلائل الإعجاز) والزمخشري في (الكشاف) قد وقفا عند ظاهرة الخروج عن المألوف اللغوي وأرسيا أسسها البلاغية قبل أن تُصاغ النظرية الغربية بقرون.
- كشف البحث أن سورة المرسلات نموذج قرآني متميّز لتضافر مستويات الانزياح؛ إذ تتكامل فيها البنية الصوتية والتركيبية في خدمة الدلالة الكبرى للسورة المتمثلة في إثبات البعث والحساب والنهي عن التكذيب، فلا يمكن فصل موسيقى السورة عن معناها، ولا فصل تراكيبها المنزاحة عن مقاصدها العقائدية .
- تجلّى الانزياح الصوتي في السورة من خلال ظاهرة التكرار الإيقاعي المتمثلة في تردّد فاصلة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، وهو تكرار ليس ترفاً لفظياً بل هو منظومة إيقاعية تُراكم الوعيد وتشدّد التحذير وتُحدث في المتلقي أثراً نفسياً تصاعدياً لا يتحقق بالافراد.
- كشف تحليل الانزياح التركيبي أن أسلوب الحذف في السورة يتجاوز الإيجاز المجرد إلى فاعلية دلالية حقيقية؛ فحذف جواب القسم في المطلع يُولّد فضاءً من التّهويل لا يبلغه التصريح، وحذف الفاعل في أفعال القيامة يُركّز الانتباه على هول الحدث لا على محدّثه، وكلٌّ من هذه الحذوف له وظيفة دلالية لا يؤديها سواه.

- أفضى التقديم والتأخير في السّورة إلى وظائف دلالية متعدّدة في آنٍ واحد؛ فتقديم الظّرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في جملة الوعيد يُبرز هول اليوم قبل بيان من يُعاقب، وتقديم الجار والمجرور ﴿بِهِ﴾ في آية الإنطلاق يُثبت العدل الإلهي ويؤكد مبدأ المجازاة على الجريمة بعينها.
- أكّد البحث أن الانزياح في القرآن الكريم لا يقع عبثاً ولا يتجاوز حدود الفصاحة، خلافاً للانزياح الشعري الذي قد يستهدف الدهشة لذاتها؛ بل إنّ كلّ انزياح قرآني محكوم بنظام دلالي دقيق تحكمه القرائن السياقية والمقاصد الإبلابية، وهذا ما يجعل القرآن الكريم قائماً بقوانينه البيانية الخاصة التي تعلو على كل معيار بشري.
- تبين أن المناهج اللسانية الحديثة كالأسلوبية وعلم الدلالة ليست بديلاً عن التفسير الكلاسيكي بل مكّلة له؛ وقد أثبت إمامان كالطبري وابن كثير رهافةً في الإحساس بالانزياح التركيبي ووعياً ببلاغته سبقا به كثيراً من نظريات القرن العشرين، ممّا يدعو إلى استثمار موروثنا النّقدّي بوصفه ركيزة أصيلة لا بوصفه عبثاً يُستأنس به.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ثانياً: المعاجم والكتب التراثية

1. ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، بيروت.
2. ابن تميم، أبو عبيدة معمر. مجاز القرآن. مكتبة الخانجي، مصر.
3. ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص.
4. ابن سينا، الحسين بن عبد الله. رسالة في أسباب الحروف. في: تسع رسائل في الحكمة والطبيعات. دار العرب، القاهرة، 1908م.
5. ابن سينا، الحسين بن عبد الله. الشفاء، المنطق: العبارة، تحقيق: محمود الخضيرى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970م.
6. ابن عاشور، الطاهر (محمد الطاهر بن عاشور). التحرير والتنوير. دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.
7. ابن فارس، أحمد. مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر، 1399هـ/1979م.
8. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1420هـ/1999م.
9. ابن المعتز، عبد الله. كتاب البديع، تحقيق: إغناطيوس كراتشكوفسكي. دار الميسرة.
10. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري. لسان العرب. دار صادر / دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3.

11. الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب. إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر. دار المعارف، القاهرة، ط5، 1997م.
12. البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة، 1422هـ.
13. الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، 1991م.
14. الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ/1992م.
15. الخليل بن أحمد الفراهيدي. كتاب العين، ترتيب وتحقيق: د. عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م.
16. الزركشي، بدر الدين محمد. البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية / دار الفكر، القاهرة، ط3، 1400هـ/1980م.
17. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
18. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر. مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.
19. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آيات القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420هـ/2000م.
20. العسكري، أبو هلال. كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية، بيروت، 1986م.
21. الفارابي، أبو نصر محمد. الألفاظ المستعملة في المنطق، تحقيق: محسن مهدي. دار المشرق، بيروت، 1968م.

22. المبرد، محمد بن يزيد. الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 2003م.
23. قدامة بن جعفر. نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى. مكتبة الخانجي.

ثالثاً: الكتب المترجمة

1. أرسطو. الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات، الكويت، 1979م.
2. أرسطو. فن الشعر، ترجمة وتعليق: إبراهيم حمادة. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967م.
3. أفلاطون. محاوره كراتيلوس، ترجمة وتعليق: عزت قرني. دار قباء، القاهرة، 1999م.
4. دي سوسير، فرديناند. دروس في اللسانيات العامة، ترجمة: صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة. الدار العربية للكتاب، تونس، 1985م.
5. كوهن، جون. بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1994م.

رابعاً: الكتب الحديثة

1. أبو ديب، كمال. في البنية الإيقاعية للشعر العربي. دار العلم للملايين، بيروت، 1974م.
2. أبو المكارم، علي. الحذف والتقدير في النحو العربي. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2008م.
3. أبو موسى محمد الحسناوي، خصائص التراكيب.
4. أنيس، إبراهيم. دلالة الألفاظ. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1984م.
5. حسان، تمام. اللغة العربية معناها ومبناها. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979م.

6. الحسناوي، أبو موسى محمد. الفاصلة في القرآن. دار الرفاعي، الرياض، 1986م.
7. الحيرو، مازن موفق صديق. الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني. مكتبة دار البيان، دمشق، ط1، 2010م.
8. خطابي، محمد. لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب. المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 1991م.
9. خلف الله، محمد أحمد. الفن القصصي في القرآن الكريم. سينا للنشر، القاهرة، ط4، 1999م.
10. خضر، ناظم عوده. الأصول المعرفية لنظرية التلقي. دار الشروق للنشر.
11. السامرائي، فاضل صالح. التعبير القرآني. جامعة بغداد، بغداد، 1987م.
12. سيد قطب. التصوير الفني في القرآن. دار الشروق، القاهرة، ط10، 1993م.
13. سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة، ط25، 1996م.
14. عباس، فضل حسن. إعجاز القرآن الكريم. دار الفرقان، عمان، ط2، 1991م.
15. عبادة، محمد إبراهيم. معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية. مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2001م.
16. عتيق، عبد العزيز. علم المعاني. دار النهضة العربية، بيروت، 1985م.
17. فضل، صلاح. أساليب الشعرية المعاصرة. دار الآداب، بيروت، 1995م.
18. المسدي، عبد السلام. الأسلوبية والأسلوب. الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ط3، 1994م.

1. بن سهلة، عبد الهادي. الظاهرة الصوتية وأبعادها الدلالية في النص. مجلة أبعاد لغوية، جامعة تلمسان، مج4، ع2، 2018م.
2. الكومي، فايز أحمد محمد. ظاهرة الحذف والذكر. مجلة علوم اللغة، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، 2010م.

فهرس المحتويات

شكر وعرفان

إهداء

مقدمة.....أ-ج

مدخل: مقارنة مفاهيمية لمصطلحات البحث:.....06

1-الدلالة.....07

2-الانزياح.....11

3-الخطاب.....14

4-القرآن الكريم.....18

الفصل الأول: الأبعاد الدلالية للانزياح الصوتي في الخطاب القرآني -سورة المرسلات
أنموذجاً

1/الانزياح الصوتي وخصائصه في الخطاب القرآني.....21

1-تعريف الانزياح الصوتي وحدوده النظرية 24

2-العلاقة بين الصوت والدلالة الفكر اللغوي العربي والغربي.....25

2/ظاهرة التكرار الصوتي في سورة المرسلات وأبعادها الدلالية.....27

1-التكرار الجمالي وأثره الدلالي.....28

2-التكرار الصوتي المقطعي وظاهرة التجانس الصوتي.....29

3/الفاصلة القرآنية في سورة المرسلات وبعدها الدلالي 30

- 1- مفهوم الفاصلة وتميزها عن القافية..... 30-31
- 2- وظيفة الفاصلة الدلالية في سورة المرسلات..... 31
- 3- انكسار الفاصلة الصوتية وأثره الدلالي..... 32
- 4/ ظاهرة الجناس الصوتي في سورة المرسلات وأبعادها الدلالية..... 33
- 1- أنواع الجناس الصوتي ودلالاتها..... 34
- 2- الجناس في السور القرآنية القصيرة الأخرى ومقارنته بسورة المرسلات..... 35
- 5/ الإيقاع الصوتي وتمثيل الدلالة الحركية والوجدانية..... 36
- 1- محاكاة الصوت للمعنى الحركي في سورة المرسلات..... 36-37
- 2- الانزياح الصوتي ودلالة الترهيب والاقناع الوجداني..... 38-39
- 6/ نماذج مقارنة من السور القرآنية القصيرة..... 46
- 1- الانزياح الصوتي في سورتي الزلزلة والقارعة..... 40-41
- 2- الانزياح الصوتي في سورتي التكويد والانفطار..... 41-42
- 3- الانزياح الصوتي في سورتي الشمس والضحى..... 42-43
- 7/ القيمة التفسيرية للانزياح في فهم الدالة القرآنية 43
- 1- الانزياح الصوتي في ضوء التفسير البلاغي القديم 44
- 2- الانزياح الصوتي بين التفسير الأسلوبي الحديث والفهم الأعجازي 44
- خلاصة الفصل..... 46

الفصل الثاني: الأبعاد الدلالية للانزياح التركيبي في الخطاب القرآني (سورة المرسلات أنموذجاً)

- 1/التعريف بسورة المرسلات..... 48
- 1-تسمية السورة وسبب التسمية..... 49
- 2-أبرز ما يميزها..... 49
- 3-سبب نزول السورة..... 49
- 4-موضوعات السورة ومحاورها الرئيسية..... 50
- 5-فضائل السورة 50
- 6-الخصائص الأسلوبية والبلاغية 51
- 7-الدروس والعبر المستفادة من السورة 51
- 2/الالتفات 52
- 1-تعريفه 56
- 2-أسلوب الالتفات عند الطبري..... 57
- 3-أنواع الالتفات في تفسير الطبري..... 57
- 4-الغرض البلاغي عند الطبري..... 57
- 3/أسلوب الالتفات عند الامام ابن كثير..... 58
- 1-منهجه في تناول الالتفات..... 58
- 2-أنواع الالتفات في تفسير ابن كثير..... 59

- 3-الغرض البلاغي عند ابن كثير..... 58
- 4/الالتفات في سورة المرسلات 59
- 1-الالتفات في مطلع السورة 59
- 2-الالتفات إلى الأمر في مشاهد العذاب 60
- 5/الحذف..... 67
- 1-تعريفه..... 61
- 2-أسلوب الحذف في البلاغة العربية..... 62
- أ-الحذف عند ابن جني وابن قتيبة والجاحظ 62
- ب-الحذف عند عبد القاهر الجرجاني 62
- 3-شروط الحذف البلاغي وأمثلة من الأدب العربي 63
- 4-أسلوب الحذف في القرآن الكريم 64..
- أ-أنواع الحذف في القرآن الكريم..... 64..
- (1) حذف المبتدأ أو الخبر..... 64....
- (2) حذف جواب القسم 64....
- (3) حذف المفعول به..... 64
- (4) حذف الفاعل 65....
- (5) حذف جملة الجواب..... 65
- 5-أسلوب الحذف عند الإمام الطبري 65

- منهجه في التعامل مع الحذف 66
- 6- أسلوب الحذف عند ابن كثير 67
- منهجه في التعامل مع الحذف 67
- أمثلة من تفسير ابن كثير على أسلوب الحذف 67
- 7- حالات الحذف في سورة المرسلات 68
- 6/ أسلوب التقديم والتأخير 70
- 1- تعريفه 72
- 2- أسلوب التقديم والتأخير في البلاغة العربية 73
- أ- التخصيص 73
- ب- الاهتمام والتعظيم 74
- ج- التشويق والابهام 74
- 7/ أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم 74
- 1- تقديم الخبر على المبتدأ 74
- 2- تقديم المفعول به على الفاعل 75
- 8/ أسلوب التقديم والتأخير عند الامام الطبري وابن كثير 75
- أ- عند الامام الطبري 75

76.....	ب-عند ابن كثير
76.....	9/أسلوب التقديم والتأخير في سورة المرسلات
80.....	خلاصة الفصل
83.....	خاتمة
89	قائمة المصادر والمراجع
95	فهرس المحتويات
96	ملخص

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأبعاد الدلالية للانزياح في الخطاب القرآني من خلال سورة المرسلات نموذجًا للتطبيق، باعتبار الانزياح ظاهرة أسلوبية تسهم في إثراء المعنى وإبراز الجمال البلاغي للنص القرآني. وقد سعت الدراسة إلى بيان مظاهر الانزياح الدلالي في السورة وتحليل وظائفه التعبيرية والتأثيرية، من خلال الوقوف على الأساليب اللغوية والبلاغية التي خرجت عن المألوف اللغوي لتحقيق مقاصد دلالية وجمالية خاصة وتبرز نتائج الدراسة أن الانزياح يمثل أحد أهم الخصائص الأسلوبية في الخطاب القرآني، لما يؤديه من دور في توسيع الدلالة وإثراء المعنى، مما يؤكد إعجاز القرآن الكريم وفردته التعبيرية.

الكلمات المفتاحية: الانزياح الدلالي، الخطاب القرآني، سورة المرسلات، الدلالة، الأسلوبية، البلاغة القرآنية.

Abstract:

This study aims to explore the semantic dimensions of deviation (linguistic shift) in Qur'anic discourse through an analytical examination of Surat Al-Mursalat as a model. Deviation is considered a stylistic phenomenon that enriches meaning and highlights the rhetorical and aesthetic aspects of the Qur'anic text. The study seeks to identify the manifestations of semantic deviation in the surah and analyze its expressive and persuasive functions by examining linguistic and rhetorical structures that depart from ordinary language usage to achieve specific semantic and aesthetic purposes.

The study adopts a descriptive-analytical approach by tracing and analyzing instances of semantic deviation within the surah in light of their Qur'anic context. The findings reveal that semantic deviation in Surat Al-Mursalat contributes to deepening meanings, strengthening argumentation, attracting the reader's attention, and vividly portraying scenes of the Day of

Judgment and divine warning through a highly influential style that combines persuasion and aesthetic appeal.

The study concludes that semantic deviation constitutes one of the most significant stylistic features of Qur'anic discourse due to its role in expanding meaning and enriching interpretation, thereby demonstrating the linguistic uniqueness and eloquent inimitability of the Holy Qur'an.

Keywords: Semantic Deviation, Qur'anic Discourse, Surat Al-Mursalat, Semantics, Stylistics, Qur'anic Rhetoric.